ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq
JTUH
مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية
Journal of Tikrit University for Humanities
كليـــة التربية للعلوم الانسانية
College of Education for Human Sciences

The Ideological Significance of the Sociology of Suicide in Emile Durkheim Epistemological Study

Saad Rifaat Sarhat

Directorate Education of Salah Al-din

* *Corresponding author: E-mail* :
srafat@gmail.com

***Keywords*:**
ideology
suicide
positivity

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 4 July. 2021
Accepted 17 Aug 2021
Available online 25 Jan 2022
E-mail
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

A B S T R A C T

Suicide is not a purely psychological phenomenon nor a purely social phenomenon as well, but it is a compound phenomenon, and any explanation based on one side of the two without the other inevitably enters the circle of dereliction and exaggeration. Durkheim found a positivist, social explanation for suicide, setting aside from individual explanations. Perhaps the significance of this explanation is that Durkheim wanted to say something about the effect: that sociology is an empirical science that can explain an anxious and mysterious phenomenon like suicide, at a time when psychiatrists were relying on explaining such phenomena. An "intra-psychological" interpretation, or by referring it to the motives of imitation and imitation, as Gabriel Tard, Lugas and others did.

Durkheim's merit, according to the convictions of the sociologists, does not lie in the fact that he studied suicide in the light of social variables instead of psychological ones, but rather that he presented a new concept of experience that we are not entrusted with. Durkheim made suicide an empirical sample, and it is established in scientific awareness that the concept of experience is within the presence of the natural sciences, which require that the study material in it be sensuous and visual. The sciences of the soul, according to Dilthey's expression. Against this, Durkheim was able to put forward a completely new approach in an attempt to contain the phenomenon of suicide and make it a subject for sociological research despite its absence.

They are, many questions that arise about the nature of this interpretation and its intellectual source, that is, the cognitive system from which Durkheim drew his doctrine of interpretation, as these questions incite the epistemological disclosure of this doctrine and an attempt to investigate its premises, its cultural significance, and the extent to which it can be applied. This is what the study tries to demonstrate.

© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.2-1.2022.19

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

المغزى الإيديولوجي لاجتماعيّة الانتحار عند إيميل دوركايم (دراسة إبستمولوجيّة)

م.م سعد رفعت سرحت/ مديرية تربية صلاح الدين

الخلاصة:

ليس الانتحار ظاهرة نفسيّة محضة ولا ظاهرة اجتماعية محضة كذلك, وإنّما هو ظاهرة مركّبة ,وأيُّ تفسير يتعكّز على جانب واحد منهما دون الآخر يدخل لا محالة في دائرة التقصير والمغالاة. وجد دوركايم تفسيرًا وضعيًّا اجتماعيًا للانتحار, مجانبًا بذلك التفسيرات الفرديّة ,ولعلَّ مغزى هذا التفسير هو أنَّ دوركايم أراد أن يقول شيئًا مؤدَّاه: أنّ علم الاجتماع علم تجريبيّ بإمكانه تفسير ظاهرة قلقة و غامضة مثل الانتحار, في الوقت الذي كان فيه النفسانيون يتّكئون في تفسير هكذا ظواهر تفسيرًا "داخل–نفسيًّا" أو بإرجاعها الى

دوافع التقليد والمحاكاة كما فعل ذلك جبريال تارد و لوغاس وغيرهما.

إنّ فضل دوركايم, بحسب قناعات الاجتماعيين,لا يكمن في أنّه درس الانتحار في ضوء متغيّرات اجتماعية بدلًا من المتغيّرات النفسيَّة, بل لأنَّه طرح مفهومًا جديدًا للتجربة لا عهد لنا بها ,فقد جعلَ من ظاهرة غامضة تكاد تكون غيبيّة,عيّنة يقاربها مقاربة تجريبيَّة.نعم إذ جعل دوركايم من المنتحر عيّنة تجريبيّة, و الثابت في الوعي العلميّ أنَّ مفهوم التجربة داخل في حضرة العلوم الطبيعيّة,التي تشترط أن تكون مادة الدراسة فيها حسيًّا عيانيًّا,أمَّا إذا انعدمت مادة البحث أو غُيِّبت صار البحث فيها نتاجًا ذهنيًّا غير ملموس,وعندئذٍ تدخل في دائرة علوم الروح بحسب تعبير دلثاي.و إزاء ذلك استطاع دوركايم من طرح مقاربة جديدة كلَّ الجدّة في محاولة منه لمحاصرة ظاهرة الانتحار وجعلها مادة للبحث السوسيولوجي على الرغم من غيابها.

وإزاء ذلك تثار أسئلة كثيرة حول طبيعة هذا التفسير ومصدره الفكري ,أي النظام المعرفي الذي استقى منه دوركايم مذهبه في التفسير ,إذ تحرّض هذه الأسئلة على المكاشفة الإبستمولوجية لهذا المذهب و محاولة استخبار مسلّماته ومغزاه الثقافيّ,ومدى إمكان تطبيقه.وهذا ما تحاول الدراسة بيانه

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق والمرسلين ,وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنَّ البحث في الأسس الوضعية التي أرساها دوركايم لعلم الاجتماع الوضعيّ ليس جديدًا ,إلا أنَّه ليس ممَّا لا يقبل المزيد من النظر, لأن هذه الأسس تشكِّل تراثًا زاخرًا يتقبَّل ما لا حدَّ له من البحوث والقراءات ،وهذا هو أحد المبررات التي تستند إليها هذه الدراسة التي أعادت النظر في جوانب قليلة من نظرية دوركايم الوضعية ،وذلك لمعرفة ما اذا كانت هذه النظرية قد تماهت مع المحيط الاجتماعي الذي ولدها,و مع النظام المعرفي الذي كان سائدًا في عصر واضعها.

تتناول هذه الدراسة اجتماعية واقعة الانتحار لدى إميل دوركايم, في محاولة للكشف عن جوانب من التقاطعات المعرفية التي تبدو –الغالب الأعم –غير واضحة ،بحيث يستدعي معاينتها الى الكثير من التعمق و الاستقصاء في مضمار علم الاجتماع ،نظرا لأنّ نشأة هذا العلم كانت في أحضان المجتمعات الرأسمالية في الغرب,تلك المجتمعات التي أعلت صوت العقل وامتثلت لمقتضياته ، وكان علم الاجتماع أحد إفرازات التوجهات المحافظة التي أسهمت في بلورته وجعلته يتطابق مع نزعاتها و إيمانها بالعلوم الطبيعة .

تقف الدراسة على شذرات من نظرية دوركايم لبيان مرتكزاتها ،قبل أن تنتقل الى تفسير واقعة الانتحار لديه عبر قراءة فاحصة عمَّا استجابت له نظريته من الأطر الاجتماعية و النظام المعرفي السائدين في عصره ،واللذين فرضا سيطرتهما على العالم الغربي ، وتحكما بالثقافة العلمية السائدة آنداك,فعلى الرَّغمِ من أنَّ هناك علاقة تخارج بين الالتزامات الإيديولوجيَّة وبين شروط العلم,إلَّا أنَّ من الاستحالة خلو الأنساق والمذاهب العلمية من بواعث إيديولوجيَّة ,فما من عالم اجتماع إلّا وقد عبَّر في بياناته ومقدّماته النظرية عن تنصّله عن قناعاته الذاتيَّة وخلفيته الفكرية وارتباطاته الإيديولوجية,ولكنّه ما أن يأتي الى حيّز الإجراء حتى وجدناه متورطًا في حبائل الانتماء المذهبي.وهكذا لم يكن دوركايم بِدعًا من أولئك العلماء,فعلى الرَّغمِ من إشاراته على الصعيد النظريّ الى ضرورة أن يكون علم الاجتماع موضوعيًّا بعيدًا عن كلِّ ضروب الإلتزام و الذاتيَّة,إلَّا أنَّ نسقه النظري و تفسيراته الاجتماعية متّصلان أيّما اتصال بقناعاته و بالثوابت الثقافيَّة في عصره.

وظفت الدراسة مفاهيم:(الإبستمولوجيا,التفسير, النظام المعرفي, التقاطع المعرفي) كأدوات مفهوميّة ،وفعلتهما للوصف والتفسير، وهذا ما يجعل من الدراسة منتمية الى حقل الإبستمولوجيا ،التي تسعى الى استجلاء تفسير دوركايم للانتحار كواقعة اجتماعية "عبر– نفسيّة", من خلال الوقوف على طبيعة هذا التفسير ومداه, واستجلاء ما فيه من قناعات تبريرية تجعله وفيًّا للنظام المعرفي السائد في العصر الذي ظهر فيه دوركايم. ومن الله تعالى التوفيق والسداد.

المطلب الأول:(الإطار العام للدراسة)

يشتمل هذا المطلب على موضوع الدراسة و أهميتها و أهدافها ، والتساؤلات المطروحة ، وأهم المفاهيم والمصطلحات الموظفة فيها .

أولا: نوع الدراسة

تنتمي هذه الدراسة الى حقل الإبستمولوجيا أو هي قراءة ناقدة لنظرية المعرفة ،إذ تسعى الى ربط علم الاجتماع الدوركايمي بالقاعدة الاجتماعية و الأنظمة المعرفية السائدة في العهد الذي ظهر فيه ،بالنظر الى أن التوجهات الايديولوجية كانت لها فاعلية كبيرة في أن تأتي نظرية دوركايم وتفسيراته مستندة الى العقلانية والتوسّم بمنهاج العلوم الطبيعية، والاشتغال بآليات العلوم الأخرى.

ثانيا :أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في اشتغالها على استجلاء طبيعة المعرفة والكشف عن النظام المعرفي وسلطته وإرغاماته على التفسير السوسيولوجي ،فقد طرح دوركايم أسسه ومنطلقاته طرحًا يتَّسق مع الأفق

الثقافيّ العام في فترة شهدت –على ما سيتضح بعد – سلسلة من الثورات الاجتماعية والثقافية ،ممَّا أدى ذلك الى فرض توجهات معرفية كانت لها السيادة في مضمار العلم آنذاك ،وكان علم الاجتماع الذي أرسى أسسه وقواعده دوركايم ،غير منفصل عن هذه التوجُّهات ،فقد التصقتْ بالمضمون الإيديولوجي الذي أشاعته الثورات تلك ،ولذا جاء هذا العلم منسجمًا مع الأفق العام للثقافة الأوربية ،ممَّا يعني أنَّ ما طرحه دوركايم من تفسير لظاهرة الانتحار لم يكن هو الآخرخاليًا من الالتزامات والارتباطات الأيديولوجية .

ثالثا: أهداف الدراسة

تتوخَّى الدراسة الوصول الى ما يأتي :

١–التعرّف على مفهوم الإيديولوجيا و النظام المعرفي و إلإطار الاجتماعي ،وعلاقة كلّ ذلك بالمنطلقات النظرية عند دوركايم .

٢–التعرف على الأسباب والعوامل التي أدَّت الى ارتهان تفسير دوركايم بالشيئيّة,ومن ثمّ وصفه ظاهرة قلقة مثل ظاهرة الانتحار بأنّها واقعة, مع أنَّها ظاهرة نفسيّة بالدرجة الأولى. وأيضا التعرف على العلوم التي استعان بها علم الاجتماع الدوركايميّ لمقاربة هكذا ظاهرة .

٣–الكشف عن الآثار الاجتماعية والتوجُّهات الإيديولوجية في هذا التفسير.

رابعا :التساؤلات

تبغي هذه الدراسة ،من خلال استعراض جوانب من نظرية دوركايم, ومساءلة تفسيره لظاهرة الانتحار، وبيان أثر الظروف التي في ظلها تمخضت هذه النظرية ،وبذلك تبغي الدراسة الإجابة عن مجموعة من الأسئلة :

١–هل هناك نظرية راسخة في علم الاجتماع بحيث لم تتأثر بأهواء واضعيها؟.

٢–في ظلِّ الهيمنة العقلانية التنويرية التي توسلتها الثقافة الغربية –والمتمثلة بعقلانية الوضعية التي تهدف الى اخضاع ما هو اجتماعي و ما هو شخصي لهيمنتها, نقول في ظلِّ هذه العقلانية: كيف استطاع علم الاجتماع من تحصين حدوده وترسيخ إطاره المنهجي وهو يتعامل مع ظواهر نفسيّة كالانتحار؟.

٣–هل نجح دوركايم في المواءمة بين خطابه النظري وخطابه الإجرائي؟.وبعبارة أخرى هل كانت تطبيقاته في الانتحار ذات صلة شديدة بنظريته؟.

٤–هل كان لأحكام القيمة والقناعات الشخصية أثر في نظرية دوركايم وتفسيره ؟

خامسًا: المفاهيم والمصطلحات المعتمدة في الدراسة .

للإجابة عن هذه الأسئلة ،لا بدَّ من تدشين أرضية مناسبة قوامها اعتماد مجموعة من المفاهيم ذات فعالية في التَّحليل الإبستمولوجي ، بما يجعل من التحليل على درجة من المقبولة والثبات .

أولًا:الإيديولوجيا

يحيل مفهوم الإيديولوجيا على نمط أو طريقة في التفكير في قضايا إنسانية ,السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية,من منطلق عقائديّ.وهذا التفكير بنمطه ومحتواه ,ينطوي على تقييم,ويشير ضمنًا أو صراحة الى أنَّه محكوم بموقع من يحملون لواءه في البنية الاجتماعية وموقعهم من التاريخ ,فهو من هنا تفكير متموقع محدود وجزئيّ ,ولا يمكن أن يكون مطلقًا ولا صالحًا لكلّ زمان ومكان, فضلًا عن أنّه تفكير ينطوي على قدر كبير أو صغير –شعوريًّا كان أم غير شعوريّ–من التحريف للحقائق أو تشويهها أو تزييفها أو إخفائها,واللدافع وراء ذلك الاحتفاظ بالوضع الاجتماعي أو الاقتصادي على حاله.[١]

ثانيًا:الانتحار.

يعرّف الانتحار–بحسب دوركايم– كلّ حالة موت تنجم بنحو مباشر أو غير مباشر,عن فعل إيجابيٍّ أو سلبيّ تنفّذه الضحية ذاتها,والتي كانت تعلم بالنتيجة المترتبة على فعلها بالضرورة,فمحاولة الانتحار هي الفعل المحدَّد على هذا النّحو,ولكنّه المقرَّر قبل أن يصبح الموت عاقبة له.[٢]فهذا الفعل يبدو ظاهريًّا أنّه فرديٌ إلّا أنَّه في نظر دوركايم اجتماعيّ,لأنَّ كلّ خصائص الفعل الفردي يستجيب في الواقع الى الانتظامات الاجتماعية.[٣]

ثالثًا:التفسير.

يعني التفسير استجلاء العلاقات السببيّة والارتباطيّة بين المتغيّرات المدروسة.[٤].وهو واقع على ما هو عيانيّ شاخص من الظواهر والوقائع.و يقع علم الاجتماع بين قراءتين,قراءة تقوم على الفهم ,وقراءة تقوم على التفسير,و هذان المفهومان يقودان الى التفريق الذي أدلى به كلٌّ من دلثاي و شلايماخر بين أصناف العلوم,لإقامة مقاربة هرمونطيقيّة في العلوم الاجتماعية ,فقد سمّى دلثاي العلوم الإنسانية التي تتضمن النزعة الذاتية و النزعة التاريخيّة بعلوم الروح ,كعلم التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع وعلم النفس,تمييزًا بينها وبين العلوم الطبيعية والعلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والبيولوجيا,فعلوم الروح تعتمد الفهم وتبرز فيها الذاتيّة ,أما العلوم الاخرى فعلوم دقيقة وموضوعيّة تقوم دراستها على التفسير لأنها تستهدف ما هو خارجيّ فحسب[٥]

فالاتجاهات الاجتماعية التي تراهن على دقّة المقاربة الاجتماعية وقدرتها على إحاطة الظواهر الاجتماعي ومحاصرتها ,تسعى لأن تقترب من العلوم الطبيعية والعلوم الدقيقة ليتسنّى لها حمل اسم العلم ,وعلى ذلك يعدّ التفسير من أهم مبادئ العلم,ولهذا السبب تبنته التوجهات الوضعية العقلانية بدعوى الموضوعية,فعندهم أنّ علم الاجتماع علم دقيق لا يعتمد الذاتية ,ومن ثمَّ استبعدوا الفهم والتأويل في مشروعهم.

رابعًا:الإبستمولوجيا.

الابستمولوجيا لا تعني نظرية المعرفة كما يشيع أحيانًا,وإنّما هي قراءة ناقدة لنظرية المعرفة,فهي دراسة نقدية لمبنى العلم من خلال استجلاء مكنونه وإمكانه وشروطه الموضوعيَّة.ويهدف هذا العلم الى تحديد قيمة معارفنا وحدودها[٦]بما فيها أصولها التطبيقية والمنهجية,وتحديد الخلفيات النظرية كشرط للإمكانية المعرفية ومبادئ التوجيه.وتعني أيضًا نظرية الإنتاج النوعي للتطورات العلمية ,إذ تُعنى بطرق تشكيل نظريات كلّ علمٍ على حدة[٧].

خامسًا:النظام المعرفي

النظام المعرفي أو الإبستيم –بحسب ميشيل فوكو –ذلك النظام الذي هو جملة من التعالقات والعلاقات التي تلتف حولها جمل من الممارسات الخطابية خلال فترة زمنية معينة ،أو كما يقول هو: مجموع الروابط القائمة بين العلوم والأشكال الابستمولوجية والوضعيات والممارسات الخطابية ،تسمح بفهم الالتزامات و الاكراهات التي تفرض نفسها على الخطاب في لحظة معينة[٨] فهذا النظام ،اذن جملة من الممارسات ،الظاهرة والمضمرة التي بإمكانها أن توجد بين الممارسات الخطابية في فترة معينة ، والتي تفسح المجال أمام أشكال ابستمولوجية وعلوم ومنظومات مصاغة صوريا ، أو ذلك المجموع من الروابط الجانبية التي يمكن أن تنشأ بين بعض الأشكال الابستمولوجية ،وذلك بالاستناد الى أنها تنتمي لممارسات خطابة متقاربة على الرغم من أنها متمايزة .[٩]

ولعلنا ،هنا،لا نبتعد عما يسميه (توماس كوهن) بالنموذج الإرشادي أو ما يسميه كارل يوبر ب(الإطار)، أي ذلك النموذج الذي يتقاسمه أفراد المجتمع العلمي ،خلال فتره معينة ،بغض النظر عن تباين اشخاصهم واتجاهاتهم ،ومن ثم امتلاك هؤلاء نموذجا مشتركا ،يفسح المجال الى أن يؤسسوا مجتمعا علميا في مجموعة واحدة .[١٠]أو كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري :((جملة من المفاهيم والمبادئ و الاجراءات تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية)) .[١١]

سادسًا:التقاطع المعرفي

أما ما يستدعيه النظر في طبيعة النظام المعرفي الذي يفرض سطوته وتحكمه على الثقافة العلمية في عصر ما ،فهو أن يتمّ توظيف مجموعة من الموجهات و الأدوات المفهومة ،بغية الحصول على ما يسوغ هذا النظر ،وعلى ذلك يقف مفهوما (التقاطع المعرفي والفضاء الاستدلالي) من بين أكثر المفاهيم كفاءة وجدوى لتحقيق هذا التسويغ ،يراد بالتقاطع المعرفي ما يحصل على التجاور العقلاني والالتقاء المعرفي بين العلوم ، بما يفهم منها أن المعارف النظرية قد تقوم في فترة من الفترات على (مساطر معرفيه مشتركة)،لاشتراكها في موضوع موحد ،بما يؤدي الى فرز مبادئ موحدة في تحليل الظواهر والوقائع ،وهو أمر لا يمكن أن يفسر إلا بالنظر الى طبيعة النظام المعرفي المتحكم في مجتمع علمي معين ، والذي يجعل من حقولها المعرفية تتداخل وتتكامل فيما بينها ،وأيضا بالنظر الى خصوصية الشرط التاريخي و أسئلته .[١٢]

فالتقاطع المعرفي ،من هنا ،أداة مفهوميّة يمكننا عبر تشغيلها وصف وتفسير طبيعة المجال المعرفي للبنية المعرفية في لحظة تاريخية ما .و إلَّا فإنّ النظرية –كلّ نظرية – إنَّما تنبثق من الانطلاق من أصول معرفية متعددة تمنح منها مفاهيمها ومناهجها ومواقفها الفلسفية ،على أن بعض هذه الاصول يكون مصرحًا بها ،وبعضها الآخر مسكوت عنها [١٣].

المطلب الثاني :(نظرية دوركايم مساءلة ركائزها)

أولًا : الوجود و المعرفة عند دوركايم

ينطلق دوركايم في نسقه الفكري من موقف سلبي إزاء الإنسان ، فالإنسان لا يتحقق وجوده الا كتابع أو مستجيب لقوة فوقية تعلوه، ففي مقابل الذاتية يكرس دوركايم مشروعه لفكرة "الذاتية الاجتماعية" ،وعلى هذا فإن النظم الاجتماعية و المعرفة الانسانية ذاتا أصل اجتماعي، وبعبارة أخرى أنّ البشر وجودُهم الاجتماعي هو الذي يفرض عليهم معارفهم ونظمهم. والإنسان بطبيعته – بما أنّه تابع لهذه القوة – لا يتخطى وجوده الاجتماعي فكريًا ومعرفيًّا ، فمن شأن ذلك أن يكون سبيلًا للفوضى والاضطراب الفرداني . وهذا هو وجه الاستلاب في موقف دوركايم من الإنسان و المعرفة الإنسانية .

هذا الموقف السلبي الذي يقارب به دوركايم المعرفة الإنسانية كان لانتمائه الفكريّ والمذهبيّ دور في تجسيده ، إذ يتحرك دوركايم في متنه النظري في ظلّ مناخ فكري واجتماعي خاص وظروف مجتمعية شهدتها فرنسا آنذاك ، وكل ذلك أملى عليه أن يقدم تصورات محافظة عن المجتمع [١٤] فهو لا يلبث يدافع وينافح عن النزعة المحافظة،الأمر الذي حدا به الى طرح موقف مناهض للنزعات الفردية ، ومنه كان موقفه من (النفس) و (علم النفس) موقفًا مفعماً بالخوف,فلعلّه كان يعتقد بأنّ علم النفس يشجّع على الفرديّة، ولهذا نرى أنْ لا شيء كان يخيف دوركايم ويهدّد نسقه الفكريّ مثل التفسيرات النفسية وعلم

النفس ، فاللجوء الى أدنى مقاربة نفسانية عند الحديث عن الظواهر الاجتماعية كان يستفز وجدانه كمحافظ ، وهو وإن لم يقرّ بذلك الا أن متضمّنات القول في متنه النظري تكشف عنه بوضوح بالغ، فقد جاءت لغته في خطاباته مفعمة بالكيد على كلّ ما هو فردانيّ نفسيّ ، فهو حين يتحدث عن النفس يظهر قصور مفهومها من الناحية العلمية ، فعلى الرّغم من التقدم الكبير الذي حازه علم النفس في عصر دوركايم قياسًا بعلم الاجتماع ، كان دوركايم ينظر الى مفهوم النفس بعين ملؤها الشكّ ، فعنده أنّ النفس ما ينفك الى اليوم ((نتاجًا للتاريخ والميثولوجيا ، وبالفعل – والكلام لدوركايم– ليس هناك ريب في أنّ النفس شأن ديني أساسًا بطبيعته وأصوله ووظائفه ، وقد تلقّاها الفلاسفة من الدّين ، لذلك لا يمكن أن نفهم الشكل الذي تصورها به مفكرو العصور القديمة ، وإن لم تأخذ بالحسبان العناصر الأسطورية التي استخدمت في تشكيل مفهوم النفس))[١٥].

وبما أنّ مفهوم النفس ما يزال محطّ شكّ, فليس من الحصافة والدقة بمكان أن ينتسب إليه دور فاعل في حياة المجتمع وجوديًّا ومعرفيًّا ، فالواقع القائم بذاته الذي يستحق أن تناط به الأدوار الفاعلة في الحياة هو المجتمع و الوجود الاجتماعيّ ، والمجتمع قوة فوقية يشكل واقعاً قائمًا بذاته ، له شعور خاص ينشأ عن التفاعل بين الأفراد ، أي أنّ هناك تساندًا متبادلًا بين الضمير الفردي والضمير الجمعي ، فكل ضمير فردي يعبر عنه بلفظ (أنا) إنما هو في الحقيقة (نحن) ، وهذا يعني أنّ كل فرد يولد ويجد الإطار الاجتماعي الذي يصبح مجرد عنصر فيه ، وهو بطبيعة الحال عنصر منفعل ، أو لنقل إنّ دوره كفاعل دور سلبيّ ،والمجتمع على هذا النحو واقع لم تخلقه إرادات فردية ، بل إن الإرادة الشخصية الفردية هي نتاج المجتمع نفسه ، ومن هنا يصبح المجتمع مستقلًا عن عقول الأفراد وتصوراتهم وحالاتهم النفسية .المجتمع كيان يعلو فوق الأفراد ، لأنّه لا يستند في وجوده على أي فرد معين ، ومن ثَمّ كانت القواعد الأخلاقية والقانونية وغيرها مظاهر موضوعية لواقع جمعيّ له خصائصه التي تعلو على الأفراد [١٦] .

وإثر هذا نرى دوركايم متورطًا في حبائل القول ب"الواقعية الاجتماعية" [١٧] وهو هنا يصدر خطابًا مضادًا للقول بالاسميّة الاجتماعية التي كانت على وشكّ الانتشار آنذاك على يد (جبرائيل تارد) الذي ذهب في كتابه (قوانين المحاكاة) الى أنّ الظاهرة الاجتماعية عبارة عن الاختراع الذي يقوم به الافراد الموهوبون والقادة والزعماء ، والمحاكاة التي يقوم بها الأفراد الآخرون ، فنظم المجتمع حسب تارد هي مجرد أسماء اصطُنعت للتعبير عن ماهية الوضعيات الفردية ، وما يقال عن عقل جمعيّ وسلوك اجتماعي ورأي عام لا يعدو أن يكون تصوّرات ومسمّيات لا وجود لها بالمعنى الاجتماعي الواقعي [١٨] وفي مقابل ذلك يأخذ المجتمع في نسق دوركايم وجودًا حيًّا يخالها((المرء على نحو غيبي في صورة إله)) [١٩]

إنّ تصور دوركايم للفرد والمجتمع يكاد يكون إعادة صياغة للمطلق الهيجلي ، فهو حين يتحدث عن المجتمع ترتفع لديه نبرة لاهوتية تذكرنا بصوفية هيجل وهو يقارب مطلقه المتعالي ، ذلك المطلق الذي يحقق ذاته عبر التاريخ,فالفرد في منظومة هيجل المثالية لا يقوم بأيّ فعل من الأفعال الاجتماعية إلّا كانت أفعاله متضمنةً الاعتماد على عدّة نفوس وعلى المجتمع ، لأن حياة المرء الخاصة لا وجود لها ، وليس هناك ما يسمى ذاتًا باطنية مستقلة ،فعنده أنّنا نحيا من خلال ارتباطاتنا بالآخرين [٢٠] فتصوّرات هيجل حول العقل البشري بخيلة جدًّا وإمكانات الإرادة الفردية لديه قاصرة عن أن تتحقق بمعزل عن الكلّ الذي يسيره ، يقول في (فينومنولوجيا الروح): ((إنّ حقّ العقل في تشكيل الواقع يتوقف على قدرة الإنسان على القول بحقائق ذات صحة شاملة ، فالعقل لا يستطيع الانتقال بنا الى ما وراء الواقع الفجّ الموجود بالفعل ، والى تحقيق ما ينبغي أن يكون إلّا بفضل شمول تصوراته وضروراتها اللذين هما بدورهما معيار حقيقته)).[٢١]

وعلى خطى هيجل حين يأتي دوركايم لتقديم تفسير لقدرة الإنسان على أمْثَلة الواقع ,أو صياغة مثله العليا نراه يقول : ((يضع الإنسان فوق العالم الواقعي الذي تقتضي حياته الدنيوية فيه عالمًا آخر غير موجود بمعنى ما إلّا في فكره ، إنّه بالتالي ، أو بهذه الصفة المزدوجة عالم مثالي ,وهكذا لا يمثل تشكيل عالم مثالي حدثًا قاهرًا يفلت من العلم ، بل إنّه يتعلق بالشروط التي يستطيع الرصد والملاحظة بلوغها ، إنه نتاج للحياة الاجتماعية ,ومن أجل أن يتمكن المجتمع من إدراك ذاته والحفاظ على شعوره تجاه نفسه بدرجة الكثافة اللازمة يجب أن يجتمع ويتركّز)) [٢٢] وهذا عين ما يذهب إليه هيجل من أنّ الناس كلما ازدادوا فهمًا اقتربوا كثيرا من حالة الهوية,أي التماهي بالمطلق ,فبوصفه مثاليًا كان يؤمن هيجل بأنه لا وجود لعالمين:(عالم الفكر ، وعالم موضوعات الفكر) فليس هناك سوى عالم واحد هو عالم الفكر ، وإذا كان غاية الإنسان أن يكتسب المزيد من المعرفة .فإنّ هذا معناه أن يهدف الى تجاوز حالته الحاضرة ، وكلما ازداد معرفةً اشتدّ اقترابه من المثل الأعلى الذي لا سبيل للوصول إليه [٢٣].

وإذن , أ ليس هذا المثال هو ذاته الذي يتحدّث عنه دوركايم بمنطق جدليّ على غرار جدل هيجل ، فعند هيجل يتقدّم التاريخ بواسطة التناقض والتوليف ,لأن الفكر يتقدم على هذا النحو نفسه [٢٤] وفي المقابل يقول دوركايم :((عندما يوضع المجتمع المثالي مقابل المجتمع الواقعي بوصفهما نقيضين يشدانِنا في اتجاهين متعاكسين ,فنحن ندرك فكرتين تجريدتين ونعارض بينهما ، المجتمع المثالي ليس خارج المجتمع الواقعي بل هو جزء منه, نحن لسنا منقسمين بينهما كما لو أنهما قطبان متنافران ، بل إننا لا نستطيع التمسك بأحدهما من دون التمسك بالآخر ، فالمجتمع لا يتشكل من كتلة من الأفراد الذين

يشكلونه ومن الأرض التي يشغلونها ومن الأشياء التي يستخدمونها ومن الحركات التي يقومون بها فحسب, بل قبل كلّ شيء من فكرته عن نفسه ,ويحدث بلا شكّ أن يتردّد حول الطريقة التي يجب أن يتصوّر نفسه بها ,فهو يشعر بأنه قيد التجاذب في اتجاهين متباينين, لكن حين تنفجر هذه التنازعات فهي لا تحدث بين المثال والواقع, بل بين مُثُل متباينة :بين مثال البارحة واليوم ، بين المثال الذي يتمتع سلطة المأثور والمثال الذي لا يزال قيد التشكيل فحسب ، وينبغي بالتأكيد البحث عن مصدر تطور المثل ,لكن مهما يكن الحلّ الذي نقدمه لهذه المعضلة ، يبقَ اكيدًا أنّ كل شيء يجري في العالم المثاليّ)) [٢٥]

فالفرد وفق هذه الرؤية معدوم الإرادة ، وتصوره للمثال الاجتماعي الأسمى سبيل وحيد لوجوده ، بل (إنّه لا يكون كائنًا اجتماعيًا ، أي انسانًا ، إن لم يكتسب تلك القدرة) [٢٦] . أي القدرة على أمثلة الواقع,فلا بدّ للإنسان من مثال يحتذي به.

والحق أنّ تمثل أفكار دوركايم سبيل الى صرف الإنسان عن ذاته ، إنه لقمّة الاغتراب أن يكون الإنسان منصاعًا لمثال أو لنسق نظريّ مصاغ بالعقل ، فبدلًا من أن يفكر الإنسان في موقفه ووجوده الشخصي سيصرف النظر عن نفسه الى تلك الصياغات النظرية.

ثانيًا :الدوركايميّة بين الفهم والتفسير

الحديث عن الفهم والتفسير يمكن تبسيطه بالحديث عن الذات والموضوع ، أي بين الذات العارفة والموضوع الذي هو هدف المعرفة ، فعلم الاجتماع الذي يجعل من أولوياته الذات غير علم الاجتماع الذي يجعل من أولوياته الوقائع ، فالأول يجعل الفهم خاصيته ، على حين يجعل الثاني التفسير غايته ، وقد تحدد هذا التفريق مع (ديلتاي) الذي طرح هذا الإشكال الإبستمولوجي على هذا النحو : هل يمكن معرفة الإنسان والظواهر الإنسانية عن طريق المنهج العلمي التجريبي في الوقت الذي تكون فيه الظواهر الإنسانية موضوع فهم لا موضوع تفسير ؟ ومن ذلك انتهى الى فصل علوم الروح (= العلوم الإنسانية) عن العلوم الطبيعية [٢٧] .

على أن التطور التقني والفتوحات العلمية التي شهدتها أوربا منذ القرن التاسع عشر جعل بالإمكان دراسة الظواهر الإنسانية بالمنهج التجريبي ، فهذا المنهج أصبح دوغما فكرية يصعب تجاوزها في كل ميادين العلم حتى لو أدى ذلك الى تشيؤ الإنسان وطمس ذاتيته لحساب البعد الاجتماعي الموضوعي ، وإلّا فإن تعارضًا واضحًا يقوم بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية ، فالعلوم الإنسانية تعاين الوقائع والأحداث من الداخل ، على خلاف العلوم الطبيعية التي تتعامل مع الوقائع التي تعاينها من الخارج[٢٨]

و حقًّا فإنّ علم الاجتماع من العلوم الروحية والوقائع التي يستهدفها هي موضوع فهم ، والعلم الذي موضوعه الفهم لا يمكن أن يكون له أساس آخر غير الفرد ، طالما أن العلاقة الاجتماعية والنظم الثقافية موضوعات دالّة لا يمكن فهمها إلّا بكونها علاقة سلوك بسلوك آخر [٢٩]

إزاء ذلك يطرح إميل دوركايم وجهه تفسيرية للسوسيولوجيا على غرار العلوم الوضعية ، متجاوزًا دراسة سلوك الأفراد في الإطار الاجتماعي دراسة تفهميّة ، فمن شأن الدراسة التفهميّة أن يضحي علم الاجتماع حسب رأيه بموضوعيته ,ومن ثمَّ فإنّ أولى القواعد الجديرة بملاحظة الظواهر الاجتماعية وأكثرها أهمية في تصوره تلك القاعدة التي تقول:((يجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء))[٣٠]

وهذا بدوره يستدعي ملاحظة الظواهر الاجتماعية مجردة عن الأفكار التي يكونها الناس لأنفسهم بشأنها ، ومن هنا يوجب علينا دراسة هذه الظواهر (من الخارج) على إنها أشياء خارجية ، لأن هذه الظواهر ليست وليدة إرادتنا ، وإنّما هي التي تحدد إرادتنا ، فمثلها مثل القوالب التي نضطر الى صبّ سلوكنا فيها [٣١]

ويبدو أن دوركايم ، على الرّغم من رهانه على وضعية علم الاجتماع وموضوعيته ، لم يخلُ خطابه من نزعاته الذاتية ، فخطابه في أحايين كثيرة الى الغنائيّة أقرب منه الى التفسير ، لاسيّما عند حديثه عن الظاهرة الاجتماعية بخطاب مفعم بالإرواحية ، إذ يضفي على الظاهرة الاجتماعية روحًا ويثبت لها إرادة فوق إرادة الانسان ، وهاك ما يقوله عن الظواهر الاجتماعية:((تميل الظواهر الاجتماعية بطبيعتها الى خلق كيان خاص بها خارج شعور الأفراد ، وذلك لأنها تسيطر على شعور كلّ فرد منهم)) [٣٢].

ففي مقابل الذاتية الفردية يطرح دوركايم ذاتية اجتماعية ، وهذه الأخيرة تنطوي بالضرورة على الحتمية الاجتماعية لا لشيء إلّا لأنها تسلب من الذات ذاتيته ، وهذا ممّا يوقع دوركايم في المعسكر المضاد للمذهب الإنساني ، بل يحدث قطيعة حادّة مع كلّ النزعات الإنسانية ، وهذا ما أدى بأحد نقاده المعاصرين الى القول بأنّ ولادة علم الاجتماع الوضعي على يده حملت معها بذور موت الإنسان ، فأعماله مضادة للمذهب الإنساني على المستوى المعرفي والمستوى الوجودي. [٣٣]

نخلص ممَّا تقدم أنّ علم الاجتماع عند دوركايم علم اجتماعٍ تفسيريّ ولكن للذاتيّة فيه دور كبير، فهو على الرّغم من رهانه على التفسير الوضعي للظاهرة الاجتماعية نرى أنّ خطابه النظري غير خالٍ من نزعاته الذاتية وقناعاته الشخصية ، الأمر الذي يقرب هذا الخطاب من دائرة (الفهم) على الرّغم من إصراره ورهانه على التفسير الوضعي ، وبناءً عليه لم يكن دوركايم أميناً في خطابه النظري الذي تتعايش

فيه خطابات ومفاهيم وعناصر تنتمي الى علوم أخرى كالفلسفة والتاريخ والبيولوجيا ، فضلًا عن أنّ الخطوط العريضة والجوانب الجوهرية في خطابه تنهضانِ على لغة لاهوتية تحفل بعناصر غيبية .

ثالثًا :تفسير ما هو اجتماعيّ بما هو اجتماعي

تقوم وظيفية دوركايم على ضرورة تفسير ما هو اجتماعي بما هو اجتماعي ، فبخلاف الاتجاهات والمدارس الأنثربولوجية والاجتماعية التي تعتمد على التفسيرات التاريخية والسيكولوجية في محاولة رد العادات والأفعال والمعتقدات الى أصولها الأولى . ينتمي دوركايم الى المدرسة الوظيفية التي قلّما تلجأ الى علم آخر غير علم الاجتماع ذاته والتصورات الاجتماعية عند تفسير الظواهر ، إنّ همَّ الوظيفية قبل كل شيء معرفة وظيفة الظاهرة أو النظام في البناء الاجتماعيّ [٣٤] فعند دوركايم أنّ من طبيعة الظواهر الاجتماعية أنّها تفسّر الظاهر فقط من خلال مفاهيم اجتماعية [٣٥]

والمغزى من هذه الفكرة هو استبعاد التفسيرات النفسيّة على وجه التحديد، إذ يبدو أن التفسيرات النفسية تقلق نظرية دوركايم ، بخلاف كل التفسيرات سواء البيولوجية أم التاريخية ، وإلا فإنّ دوركايم يستعين في غير مناسبة بالتفسير البيولوجي وبالتفسير التاريخي ، وإنْ لم يكن لجوؤه الى هذين الحقلين لجوءًا فجًّا وضاغطًا كما يبدو عند سابقيه [٣٦] فما يقلق دوركايم ونسقه النظري من بين كل التفسيرات هو التفسير النفسي ، لانطلاقه من مسلَّمة أنّ علم النفس بعيد عن الموضوعية ، وذلك لأنّ الظواهر النفسيّة تبدو في واقع الأمر على أنّها أشياء داخلية بطبيعتها ، بحيث لا يمكن فصلها عن الشخص الذي يشعر بها ، وعندئذ يتعذّر دراستها من الخارج إلّا عن طريق الاستعانة بطائفة كبيرة من الأساليب والحيل التي تحول بيننا وبين الموضوعية [٣٧] ومن الحجج التي يطرحها دوركايم تاييدًا لمذهبه هو أنّ((الحالات النفسية ليست سببًا ، وانما نتيجة للوقائع المجتمعية ، والدليل على ذلك اختلاف الميول النفسية وتغيرها باختلاف وتغير الشروط المجتمعية ، واختلاف الميول النفسية بين مجتمع وآخر)) [٣٨] .

وبناء عليه ينبغي أن يُفسّرَ ما هو اجتماعي بما هو اجتماعي فحسب،وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فعلينا أنْ((نلاحظ الظواهر الاجتماعية في ذاتها ، أي مجردة عن الأفكار التي يكونها الناس لأنفسهم عنها ويجب علينا أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية ، وذلك لأنها لا تقع تحت ملاحظتنا إلا على هذه الكيفية ، ولئن خيل إلينا ان وجود هذه الطواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودًا بحسب الظاهر ، فسوف يتبدّد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع ، وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الخارجية الشعور الداخلي للأفراد)) [٣٩]

ولعل هذا يقدم لنا تفسيرًا اوليًّا لعزوف دوركايم عن المتغيرات النفسية عند تفسير ظاهرة الانتحار ، وهذا هو دأب التوجهات المحافظة التي تكابر على تأثير المؤسسات وتعاليها ، و من ثمّ اعتبارها سلطة عليا ينبغي الامتثال لها ، لأنها ضرورة ضد الفوضى التي تثيرها الفردانية .

رابعا :الوعي الجمعي والجبرية الاجتماعية

تقدّم أن دوركايم توغل بواقعيته الى أبعد أشكال الاستلاب الذي يحول بين نسقه و النزعة الإنسانية ، وذلك حين نزع منزعًا تجريبيًّا فجًّا اضطر الى القول بالتشيؤ ، فحسب إرغامات البراديم الوضعي استعان دوركايم بالتجريبية التي معها يستبعد كلّ نزعة قبلية (Apriorism) وتعامل الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء عارية ومجردة من كلّ ما يمت الى الاستنبطان بصلة . نعم, فالواقعة الاجتماعية عنده شأنها شأن أي ظاهرة طبيعية تخضع لقانون العليّة نظرًا لطبيعتها الخارجية ,والى هذا الحدّ يصادفنا سؤال ، جوهريّ **: ماذا تعني بالتحديد شيئية الواقعة الاجتماعية .**

إنّ الواقعة الاجتماعية ليست أشياء مادية بحتة ، لكن مثلُها مِثل الأشياء المادية ، فمن جانب نرى أن الواقعة ليست (فكرة) وبما أنها ليست فكرة فهي شيء، أو ينبغي أن تعامل معاملة الشيء . ومن جانب آخر أنّ الواقعة تدرك من الخارج ، وهي بذلك موضوع تفسير لا موضوع فهم. ويبدو أنّ دوركايم يريد بذلك أن يقول أن منهجه لا يتضمّن أي تصوّر قبلي ولا أي تصوّر ميتافيزيقي .وممّا لا يخفى على أحد أنّ مسائل الشيئيّة وتخطّي النزعة القبلية والابتعاد عن الميتافيزيقيا تسلّلت إليه من إيمانويل كانت ,وبالتحديد من موقفه تجاه قضيّة"الشيء والشيء في ذاته"أي استحالة تجاوز العقل ظواهر الأشياء الى الأشياء في ذاتها,فضلًا عن أنّ إيمانويل كانت لم يؤمن بوجود إدراكات أولية فطريّة وإن كانت هي شرطًا للمعرفة,فالتجربة هي نقطة البدء في كلّ معارفنا[٤٠] وعلى العموم كان دوركايم يسعى إلى صياغة منهج بعيد كلّ البعد عن أي تفكير نظري بحت ، وهو بهذا يضع عالِم الاجتماعي في حالة عقلية كتلك الحالة التي يكون فيها علماء العلوم الطبيعية وإلا فإنّ ((أحدًا لا يجادل في امكانية العلوم الفيزيائية والطبيعية ونحن – يقول دوركايم – نطالب بهذا الحق نفسه)[٤١]

ولكن أ حقًّا لم يتضمن منهج دوركايم وخطابه النظري تصوراتٍ ميتافيزيقية وأفكارًا مجردة موغلة في التفكير النظري ؟.

إنَّ اصرار دوركايم على مسايرة البراديم الوضعي والوفاء المستميت له لم يحولَا دون تورّط خطابه في التصورات الميتافيزيقية, فمن السهولة بمكان الوقوف على المنحى الميتافزيقي والتجوهر المفاهيمي في

خطابه ، بل قد لا يخلو خطابه في مناسبات كثيرة من خيال شعريّ ، فمثلًا حين يتحدّث عن أسبقية المجتمع على الفرد يقول : ((إذا استبعد الأفراد بقي المجتمع) [٤٢]ثمّ إن مفاهيمَ مثلَ (الوعي الجمعي – والضمير الاجتماعي– والقهر الاجتماعي) لا تخلو هي الأخرى من آثار ذاتية وغنائية ، فضلًا عن أن هذه المفاهيم والتصورات تركت آثارًا سيئة على مجمل النظرية الاجتماعية التي تلت دوركايم ,فمفهوم الوعي الجمعي مثلًا يشكّل صورة موغلة في الجوهرانيّة التي يلعب فيها الخيال التوسعيّ والاستحواذ لعبته على الفكر البشري ، إذ يضفي دوركايم على الوعي الجمعي خصائص روحية فجّة لا يمكن أن تمرّ مرور الكرام من بين غرابيل النقد، فضلًا عن أنه بهذا المفهوم سنَّ سنة خطيرة في الأبحاث الاجتماعية والأنثروبولوجية التي سايرت نظريته وجعلته مرجعيّة لا يطالها الشكّ [٤٣].

يقول دوركايم عن الوعي الجمعي : فليس المجتمع مجرد مجموعة من الأفراد , ولكن المركب الذي ينشأ بسبب اتحاد هؤلاء الأفراد ,وتكون الظاهرة الحقيقة لها جنسها الخاص وصفاتها الخاصة, فإنّ نفوس الأفراد حينما تتجاذب ، وحينما يؤثر بعضها في بعض ويندمج بعضها في بعض تؤدي الى وجود كائن جديد ونفسي ، ولكن لهذا الكائن شخصية نفسيّة من جنس جديد[٤٤] فهذا الكائن وإن ينشأ من اجتماع الأفراد ، الا انه ينشأ عنهم ثم يعود على عقبيه ليهمن عليهم ، فهو الكائن الكلي الذي يوظفهم ويحددهم حسب مشيئتها ويحتل مرتبة الاله بالنسبة للافراد ، والخروج عن ارادته لون من الوان الفوضوية التي هي عمى اجتماعي واخلاقي, ولكن في مقابل ذلك لا يعلو هذا الكائن على الدراسة العلمية او يتبدّد ويتلاشى مع محاولة التعرف على اساسه العلمي ,فالمجتمع وحدة فعلية وحتمية يمكن تفسيره,وليس هذا الكائن أبيًّا على التفسير الإمبريقي, وكلّ تفسير لا يراعي إرادة هذا الكائن وتعاليه لا بد من ان يتوغل في الفوضوية بجانبها الوجودي والمعرفي,وتلك هي التفسيرات الفردية(أو النفسانيّة)التي هي استعداد عقلي مؤدلج يحول دون رؤية الافراد للاشياء كما هي, فالتوجه الى المذهب الفردي توجه نحو جعل الوقائع الاجتماعية خارج نطاق الطبيعة اي خارج القوانين الطبيعية [٤٥].

إن ما يثير ويلفت في هذا الخطاب هو أنه لاءم بين تصورات روحية وإمبريقية في حيّز نظري واحد ,فبينما ينسب الى المجتمع سمات روحية, فإذا به يقدمه للبحث والمساءلة الإمبريقية ، وهذا هو دأب الفكر المذهبي الذي ينحو نحوًا نسقيًّا ، فيلائم بين الأضداد بحثًا عن الاتِّساق النظريّ الذي معه يذوب الإنسان ويتلاشى, إنّ همّ الفكر النظريّ أن تتّسق لديه الرؤية فحسب, ولو كان ذلك على حساب الذات .

وقل الأمر ذاته عن قضية القهر الاجتماعي ، فهي فكرة لا تخلو من جوانب ميتافيزيقية ، وتحمل بين طياتها مغزى إيدولوجياً غير خفيّ, فعند حديثه عن الظاهرة الاجتماعية وخارجيتها يأتي الحديث عما

تنطوي عليه الظاهرة من قوة قاهرة خارجية تباشر هذا القهر على أفراد المجتمع ، أو يمكن أن تباشره عليهم, ومن الممكن أن يتعرف المرء على وجود هذا القهر بدوره, إمّا بوجود بعض العقوبات التي حددتها القوانين أو بالمقاومة التي تعترض كلّ محاولة فردية ترمي الى التمرّد على الظاهرة الاجتماعية [٤٦]

يريد دوركايم بهذا أن يؤكد خارجية الظاهرة الاجتماعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبغي محاصرة الفردانية نظريًّا ، فيرى ان الجزاءات الاجتماعية تمارس ضغطا اجتماعيا على الافراد وهو ضغط حتمي, لان الجزاءات تفرض الاكراه ,وعليه فهذا الضغط يؤكد الوجود الاجتماعي ، والا فان القهر سلطة اكراهية من خلق السيادة العامة للمجتمع او من قوة الالزام الكلية فيه ، ولهذا فان هذه السيادة تنعكس في ضمائر الافراد ، وهي صادرة في الحقيقة عن ضمير الجماعة [٤٧] ويبرهن على ذلك بأنّ هذا الإلزام ذو تأثير حادّ على السلوك ,فحين أقوم بالتزاماتي كأخ أو أب, أو حين أوفي بتعاقداتي فإني أقوم بواجبات لم أحددها أنا بنفسي ، أو لم تحدّدها أفعالي ولكنها محدّدة لي سلفًا في القانون والعرف وفي العادات الجمعيّة ,لأن كلّ ذلك يوجد بوجود المجتمع وطبيعته فكلّ المشاعر والأحاسيس وإن اتّفقت مع عواطفي وشعرتُ بها ذاتياً ,فإنّ واقعها سيظلّ موضوعيًّا [٤٨]

إنّ مفهوم القهر عند دوركايم ، بل في مجمل النظرية الاجتماعية بجانبها البرجوازي والاشتراكي ، إما يتضمن مغزًى اخلاقيًا ، فمضمون القهر هو الإخلاص للنظام الاجتماعي القائم ، إنه مفهوم مفعم في نظرية دوركايم بالرّوح البرجوازية التي تسعى الى تأييد النظام الاجتماعي وتقويته وتأكيده والثقة في جدوى أهدافه [٤٩] حيث يرتكز دوركايم بصورة فاضحة الى قيمة (الرضا) لدى المواطن ، فمع أن الفرد كان دائمًا خارج حساباته النظرية ، إلّا أنّه يتكئ عليه حين يريد تمرير هذه الفكرة ,وعلى هذا فإنّ على المواطنين الرضا بما قسم لهم, وأن يقنعوا بما لديهم ، ولكي يقنعوا بذلك ويتقبلوا الرضا ينبغي أن تُقدم لهم أساليب تربية وتنشئة ترشدهم الى أنه ليس من حقهم أن يطلبوا أكثر ممّا لديهم ، ولذلك فإنّه من الضروري أن توجد سلطة في المجتمع تمتاز بالقوة تلزمهم بالاقتناع بحالتهم الراهنة ، ولا ينبغي إطلاقًا أن يتطلّع الإنسان الى أشياء ليس من حقّه [٥٠]

إنّ هذا لبرهان على انقياد دوركايم للمنظومة المعرفية التي هيمنت على وجدان المحافظين في فرنسا آنذاك وهم في حالة صراع طبقيّ وفكريّ مع مناوئيهم، فكلّ شيء في نظرته دوركايم يستدعي سياق عصره ،حيث تمثّل نظريته موقف المحافظين من الاشتراكية من جانب [٥١] وموقفهم من الفردانية ، وإذا كان موقف دوركايم من الاشتراكية يبدو في غاية الوضوح ، فإن مواقفه من الفردانية في أحايين كثيرة لم تكن واضحة تمام الوضوح . إنّ الفردانية كانت تقلقه وتقضّ مضجعه أكثر من أي نظام فكريّ ، ويكفي دليلًا على ذلك الامتعاض والتّذمر اللذان كان يبديهما دوركايم إزاء علم النفس ومفهوم النفس ، ولكي

تتضح امامنا صورة الامتعاض أكثر جلاء انه كان يصف النفسانيين وعلماء الاجتماع النفسي بـ (الإيدولوجيين) وهو وصف سلبيّ يحمل الكثير من الامتعاض، فالإيدولوجيا لديه هي مذهب الفردية الإنسانية ، وهي التصوّر المسبق الذي يلازم أهل العلم ويعيق قيام العلم [٥٢]

الفصل الثالث :(المغزى الإيديولوجيّ لتفسير ظاهرة الانتحار عند دوركايم)

أولًا : لماذا الانتحار؟.

الانتحار – بوصفه ظاهرة خاضعة للكشف والدرس – من اختصاص السيكولوجيا، فمن البداهة بمكان أنك حين تسأل أقل الناس حظا في العلم واوفرهم كذلك عن الانتحار:هو خاصية أي العلوم ؟ تجد الاجابة حاضرة بدهيًّا من خاصية علم النفس والطبّ البشري ، مثلما يعدّ تقسيم العمل خاصية علم الاجتماع ، من دون أن نعني بذلك حصر العلوم كلٍّ منها بظواهر معينة أو مجال أو نشاط معين ، فالعلوم تتعاون وتتداخل وتتكامل فيما بينهما ، لولا أن طبيعة هذه الدراسة بمنحاها الإبستمولوجي النقدي فرضت علينا هذا السؤال الذي وضعناه عنوانًا لهذه الفقرة ، والذي نعيده هنا مجددًا بصيغة أخرى: لماذا اختار دوركايم الانتحار موضوعًا للدراسة من بين ما لا حدّ له من الظواهر التي تصلح أن تكون موضوعًا للمقاربة الاجتماعية ؟

إن متغيرات كثيرة تؤدي دورها مع كل حالة انتحار عيانية بلا أدنى شك, فهناك متغيرات اجتماعية واقتصادية ودينية وعائلية ومذهبية وفكرية الى غير ذلك ، إلا أن مجال دراسة الانتحار الأثير هو علم النفس ، فلا متغيّر من المتغيرات يبزّ المتغير النفسي في حدوث الانتحار ، ولا أظن أن أحدًا يشكّ أدنى شكّ في هذه الحقيقة , اللهمّ إلّا الذي يبحث عن تفسير مغاير لغاية ما ، نعم لغاية ما ، فما غاية دوركايم من صنيعه هذا ؟

قبل أن نخوض في الإجابة ، نشير الى أننا نستعمل كلمة (غاية) بالمعنى الذي حدّده أوجست كونت إمام المدرسة الوضعية، فقد حذر كونت الاجتماعيين من مغبّة السقوط في التفسيرات الغائبة والمعيارية التي كانت تميّز الدراسات الاجتماعية غير الوضعية أو التي سبقت ظهور الوضعية.فقد كانت غاية تلك الدراسات هو الوصول الى المثل الأعلى الاجتماعي والسياسي الذي ينبغي تحقيقه, والبحث فقط عمّا ينبغي أن يكون عليه المجتمع ، فكانت إثر ذلك تُعنى بوضع معايير وقواعد للعمل بمقتضاها يعمل الناس في الحياة الاجتماعية ,بخلاف الدراسات الوضعية التي تسعى الى المعرفة الموضوعية للحقيقة بعيدًا عن كلّ غائيّة ومعياريّة ,بل تصرف جهودها لِمَا هو كائن لا ما ينبغي أن يكون[٥٣] و دوركايم يقرّ بهذا الشّعار في غير مناسبة [٥٤]

وإذن فما غاية دوركايم من دراسة الانتحار ؟ وهل كان دوركايم أميناً لتراث أستاذه بعدم ركونه الى الغاية والمعيار في دراسته هذه ؟

بدءًا ، نلمح من دوركايم وموقفه غير المحمود من الفردانية وعلم النفس أنه في اختياره الانتحار موضوعًا لاختبار نظريته, كان يصدر من موضع تحدٍّ ورهان للنفسانيين ، إنه إذ يدرس الانتحار يكون قد دخل ميدان علم النفس لينتشل منه ظاهرة هي أدخل في مجال النفس,وذلك ليؤكد بها دقة علم الاجتماع الذي كان منهجه محطّ شكّ ، بل قل كان وصفه بالعلم محطّ شكّ. فكان على دوركايم ان يثبت علمية السوسيولوجيا ويكشف عن إمكان محاصرته الظواهر بالمنهج التجريبي ، وهو إذا نجح في ذلك يكون قد احدث قطيعة معرفية مع كلّ الانساق والتفسيرات التي لم تستطع أن تجعل من السوسولوجيا علمًا دقيقًا ، هذا من جانب . ومن جانب آخر يكون قد أبطل جدارة علم النفس بالتعامل مع ظاهرة قلقة مثل الانتحار وكذلك مع أيّة ظاهرة اجتماعية أخرى,فكتاب الانتحار ليس إلّا شكًّا في موضوعية السيكولوجيا و علميتها، ولا أدل على ذلك من أن الكتاب يضغط كثيرًا على التفسيرات النفسية ويتناولها بالفحص الدقيق ويحرص أشد الحرص على إبطالها, وإذا جاز لنا أن نلخّص هذا الكتاب ببضع كلمات – وهو غير ممكن بالطبع– فإننا نذهب الى أنه خطاب يستهدف علم النفس ويسلط الضوء على مكامن الضعف فيه . ثم إن نظرة سريعة في محتويات الكتاب يكشف عن مدى انشغاله بالفردانية وعلم النفس ,فمن بين ثلاثة عشر فصلًا موزعًا على ثلاثة أبواب يشغل علم النفس والفردية بنية عنوان لسبعة فصول ,على الرّغم من أنّه اختار للابواب عناوين اجتماعية فخمة ، وإذا توغلنا في صفحات الكتاب فسنلحظ ذلك بصورة أكثر وضوحًا ,فالإشكالية التي ينطلق منها دوركايم هي: مدى إمكان صلاحية الانتحار ليكون موضوعًا لعلم الاجتماع ؟.وبتعبير دوركايم نفسه: ((هل الفعل المعرّف على هذا النحو يهمّ عالم الاجتماع ؟ فما دام الانتحار فعلًا يقوم به الفرد ولا يطال أثره سوى الفرد, فينبغي كما يبدو أن يكون خاضعًا حصرًا لعوامل فردية وأن يكون بالتالي من اختصاص علم النفس وحده, أ لسنا نفسر في الواقع المنتحر غالبًا بمزاجه أو بطبعه أو بسوابقه أو بحوادث تاريخه الشخصي ؟))[٥٥].

إن المسؤولية الأخلاقية في العلم ، إذا ما تعلّق الأمر بالهلاك والخطر ، تتطلب التحري والتدقيق في كل حالة انتحار بمفردها على حدة,إنّ قضية خطيرة مثل الانتحار في حاجة إلى أن تخضع كل عملية منها للدراسة ما استطعنا الى ذلك سبيلا, على أن هذه المسؤولية تتلاشى في ضمير دوركايم إذ يغطي ضمير المحافظين الجمعي على ضميره الفردي ,ولهذا فان دراسة الانتحار ((كحوادث خاصة معزولة بعضها عن بعض, بحيث يحتاج كلّ منها الى دراسة على حدة)) [٥٦] سيكلفه الكثير ,فقد يكلفه انهيار النسق ، نعم هذا النسق المرتبط روحيًّا ووجدانيًّا بأخلاقيات المحافظين ,إنّه صورة لمُثُلهم التي تنهار باقترابها من الفرد الحرّ، وتنتعش مع الفرد الطبقي الذي يُعبر عنه بالأرقام أو كقيمة تابعة في النسق.

فالنظر الى الانتحار كحادثة خاصة فريدة ليس في حسابات دوركايم, لأنّه من شأن ذلك أن يخدش وجدانه كمنتمٍ ، فما يرضى وجدانه هو الوفاء للبراديم الكونيّ المحافظ الذي يرغمه الأخذ ب"تعالي النسق " بما يفضي الى مقاربة الانتحار بالنظر((الى مجموع الانتحارات التي حدثت داخل مجتمع محدد وضمن وحدة زمنية محددة ,فسنلاحظ –يقول دوركايم– بأن المجموع الحاصل على هذا النحو ليس مجرد مجموع لوحدات مستقلة أو جملة من النماذج, بل إنه يشكّل بحدّ ذاته واقعة جديدة من نوع خاص لها وحدتها وفرديتها وطبيعتها الخاصة بالتالي ,وإنّ طبيعتها هذه فوق ذلك اجتماعية بامتياز)) [٥٧] فما يهمّه من الانتحار أن يكون اجتماعيًّا ، أي أن يكون واقعة جديدة من نوع خاص تؤهله لأن يخضع لمتطلبات الكليانيّة، أمّا المنتحر فلا يهمّه منه شيء, يكفي أن المنتحرين بمجموعهم يشكّلون رقمًا يكون ثابتًا في جدول من جداول دراسته, ثمَّ إنّ هذا الرقم يغنيك عن اعتبارات امتداد الفترة الزمنية التي يحدث فيها الانتحار ,فاعتبارات الزمن تقلق النسق,لأنّ ((ظروف الوسط الذي تتطور داخلها حياة الشعوب تظلّ من سنة الى أخرى هي ذاتها بنحو ملموس,رغم أن تغيرات ملحوظة تظهر أحيانًا ، ولكنها تشكل الاستثناء بالتاكيد, إضافة الى ذلك يمكننا أن نرى بأن هذه التغيرات تتزامن دومًا مع أزمة تترك أثرها على الوضع الاجتماعي آنيًّا)) [٥٨]

فالتغيرات الملحوظة تشكل استثناءً لا ينبغي الوقوف عندها ,لأنها لا تشكّل قيمة, بل لا تشكّل حتى جزءًا في سياق الكلّ حسب تعبير حواريه البنيويين الذين طوروا من بعده هذه النظرة واهتدوا الى فكرة النسق ولازمنيته التي انتهت الى موت الانسان [٥٩]

فالانتحار إن لم يؤلف بمجموعه أو بعدد من المنتحرين رقمًا في فترة زمنية محددة لا يكسب صفة (الاجتماعية) والسبب هو أنّه لا يشكّل واقعة .وهنا نسأل:**ما الواقعة عند دوركايم ؟ وكيف ينظر الى الانتحار بوصفه واقعة ؟**

ثانيًا: الانتحار بوصفه واقعة:

يبحث دوركايم عن تعريف موضوعيّ للانتحار بما يتّسق وخطابه النظريّ، فالمهمة الأولى لديه هي تحديد نسق الحوادث التي يريد مقاربتها تحت عنوان (الانتحار) وهذا النسق ينبغي أن يتحَدّد بما يتفق مع مشيئية الواقعة الاجتماعية، وبدءًا يقدّم دوركايم صيغة تعريف أوليّة بقوله: ((نُسمّي انتحارًا كلّ ميتة تنجم بنحو مباشر أو غير مباشر عن فعل إيجابي أو سلبيّ جرى تنفيذه بيد الضحيّة ذاتها))[٦٠].

والمقصود بالفعل الإيجابي أنّهُ عمل غير امتناعي، كأن تكون طريقة الانتحار تنطوي على بذل جهد عضلي، كاستعمال مُديَة أو مسدس، أمّا الفعل السلبي فهو الفعل الامتناعي،وتكون طريقة الانتحار فيه قائمة مثلًا على امتناع مغادرة السيارة وهي تحترق، أو الامتناع عن الطعام,وغير ذلك من الطرق[٦١].

على أنّ هذا التعريف يبدو ناقصًا غير مكمّل تعوزهُ إضافات و احترازات تتعلق بالنيّة والغاية والعلم والآثار التي تترتب على حدوث الانتحار، وأول شيء يحترز منهُ دوركايم لتأكيد اجتماعية الانتحار هو(النيّة).لأن النيّة هي شيء أشدّ صميميّة من أن نتوصل إليها ومعرفتها من الخارج إلا عبر تخمينات تقريبيّة، ثمّ يأتي دوركايم على (الغاية) فحال الغاية كحال النيّة لا يمكن تحديدها، وإلا فإنّ مجموعة من الحركات تبدو متناسقة ومتطابقة لها طبيعة واحدة،إلاّ أنّنا نستطيع مطابقتها مع غايات مختلفة،أمّا العلم(أي معرفة نتيجة هذا الفعل) فيرى أنّه يكمّل التعريف،لأنّه شرط لابدّ منه لاكتمال مفهوم الواقعة عند تعريف الانتحار، وذلك ((أن ما تشترك به كافة الأشكال الممكنة لهذهِ التضحية الكبرى هو أن الفعل الذي يكرس لها يتمّ تنفيذه بمعرفة السبب، ذلك أن الضحيّة يترتّب على تصرّفها، وعليه فإنّ كافة الأفعال المميتة التي تبرز هذهِ الخصوصيّة المميزة، تختلف بكل وضوح عن الأفعال المميتة الأخرى التي لا يكون الميت فيها هو صانع موتهِ، أو يكون صانع موتهِ ولكن دون وعي منه)) [٦٢]

وهكذا يظهر لنا أنّ التزام دوركايم بالتجريبيّة فرض عليه أن يستبعد كل الدوافع والمشاعر التي تأبى على الرصد التجريبي ,ولم يبقِ منها إلا(النتيجة) لأنها ركن لابّد منهُ في كلّ تجربة ,فضلًا عن أنّها تتميّز بخاصّية يُسهل التعرف عليها، لأنّ معرفة ما إذا كان الفرد يعلم مسبقًا أم لا العواقب الطبيعيّة لفعلهِ لا يمثل معضلة مستعصية)) [٦٣] وهكذا يخلص دوركايم الى صيغة تعريف نهائي: ((نسمّي انتحارًا كلّ حالة موت تنجم بنحو مباشر أو غير مباشر عن فعل إيجابي أو سلبي تنفذه الضحيّة ذاتها، والتي كانت تعلم بالنتيجة المترتبة على فعلها بالضرورة، فمحاولة الانتحار هي الفعل المحدّد على هذا النحو، ولكنهُ المقرّر قبل أن يصبح الموت عاقبة لهُ)) [٦٤]

وبذلك يفرز دوركايم الانتحار الاجتماعي أو الكامل والصريح عن كل أنواع الانتحارات الأخرى التي يسميها "انتحارات جنينيّة" أي غير مكتملة، نظرًا لارتباطها بغايات وعواطف نفسيّة كالشجاعة والتفاني،أو التهور واللامبالاة، أو ما يتعلّق منها بفقدان الوعي أو الجنون، فهذهِ الأمور تقع خارج التصنيف، ولا تؤلف مع حالات الانتحار الكامل وحدة صارمة، فهي بعبارة أخرى حالات فردية متغيراتها غامضة وغير ملموسة، الأمر الذي يجعلها بعيدة عن التجربة، فالتجربة تعني((أن تأخذ الوقائع الملموسة وتصنّفها، وتضفي عليها الوحدة الصارمة والشكل العلمي، وتكشف الترابط والتكرارية في الطبيعة)) [٦٥]

إنّ ركون دوركايم الى اعتناق المذهب الحسّي في موقفهِ العلمي من الانتحار أمرٌ لا يرقى إليه شكّ ,على الرغم من أنّهُ يقارب ظاهرة قلقة من منظور التجريبيَّة، ولكن لا بأسَ إذا ما تعرّض مفهوم التجربة لديه

لشيء من التكييف ,ليتسق مع أهدافهِ ومنطلقاتهِ النظرية، ففي رأينا أن مذهب دوركايم في الوجود يتّفق مع مذهبهِ في العلم،إنهُ بذلك يبحث عن الانسجام أو الاتساق مع الطبيعة، وعلى غرار كلّ الوضعين ينظر دوركايم الى مذهبه بوثوقيّة من أنّهُ قراءة دقيقة للطبيعة، فتحقيق الانسجام بين خطابهِ النظري والإجرائي صورة لمذهبهِ،فإذا كانت وحدة التحليل الاجتماعي في خطابهِ النظري هي الواقعة التي يعرّفها بانها:كلّ وسيلة أو أسلوب للتصرّف أو الفعل Acting تمارس قهرًا خارجيًّا على الفرد.وتتّسم بالعموميّة، وهي مستقلة عن تحقيقاتها الفرديّة[٦٦]نقول إذا كانت وحدة التحليل هي الواقعة فإن ممّا ينبغي له هنا هو أن ينتصر لهذا التعريف ويسايرهُ في مقاربته الإجرائية عن الانتحار، وإذا كان الانتحار بطبيعته القلقة والغامضة تأبى على الملاحظة المباشرة بخلاف الوقائع الأَخرى التي تتصف بالشيئية نظرًا لوضوح خارجيتها، فلا بأس فلقد احترسَ من هذا الإشكال في نظريته، حين قال:((حتى لو كانت الظواهر الاجتماعيّة لا تنطوي على كلّ الخواص الذاتية للأشياء، فإنّهُ يجب علينا أن ندرسها بادئ ذي بدء كما لو كانت تنطوي على هذه الخواص))[٦٧]

معنى ذلك أن خطابه النظري قدَ فسحَ المجال لاستيعاب هكذا ظواهر قلقة، فالظواهر الاجتماعية التي تأبى على الملاحظة لابدّ من دراستها بصورة غير مباشرة، أي عن طريق ملاحظة آثارها، وكأنّكَ بهِ كان يخطّطّ منذ وقتٍ مبكرّ لاختراق علم النفس وإخضاع ظاهرة نفسية قلقة كالانتحار للدرس السوسيولوجيّ، وإلاّ لَمَا ظَهَرَ خطابه على هذهِ الدرجة من الانسجام والدّقة، فبين كتابه (قواعد المنهج ١٨٩٣) وكتابه(الانتحار ١٨٩٥) سنتان فحسب,ممّا يعني أنّه ,على أقلّ تقدير, كان يكتب"قواعد المنهج"بالتزامن مع جمع بيانات الانتحار وفرزها,وعندئذٍ يكون قد وصل إلى قناعات معينة تشكّل لبّ نظريته في قواعد المنهج.

إنّ الركون الى الواقعة بدلًا من الفعل لاتخاذهِ وحدة تحليل اجتماعي ,حتى لو كانت الظاهرة التي هي قيد الدراسة أمرًا مجرّدًا أو خافيًا بأبعادهِ كالانتحار، فذلك لأنّ الفعل يستدعي سياقهُ ولهُ خصوصيّة، ومراعاة سياق الفعل وخصوصيتهُ يحول دون تعميم الظاهرة، فالفعل الاجتماعي إذا ما خضع للتّسييق وراعينا فيه الفرادة من شأنهِ أن يخرج عن سيطرة النسق، فمن دون تعميم ليس بالإمكان التفسير، إذ لابدّ من تعميم الظاهرة وحزم كلّ جزء منها إلى ما يماثلها [٦٨] وما يشذّ عن العموم لا يدخل في النسق، أو لا يستأهل أن يوصف بالاجتماعي، ولنكن أكثر دقة، لا يوصف بالسويّ [٦٩] إنّ شذوذ الفعل الاجتماعي ليس إلا تجسيدًا حيًّا للخروج عن قوانين الطبيعة.

وهكذا أصرّ دوركايم على إمكان التوفيق بين التجربة والتفسير، بواسطة فهم أكثر تطورًا للتجربة عبر خطابهِ الذي يحمل رؤية صاحبهِ للعالم، فعلى الرغم ممّا يبديه دوركايم من تحفّظ إزاء ذاتية الباحث

وقناعاتهِ وأفكاره المسبقة [٧٠] إلّا أنّهُ لم يستطع التخلّص من ذلك، فقد خضّع مفهوم الانتحار الاجتماعي لديه الى ضروب من تصحيح المسار، لاسيمّا حين كان يرتطم بالمقاربات النفسيّة.

ما نريد قولهُ هنا، هو أن(الانتحار) كان فكرة سبق تكوينها بزمن، وقد لعب الخيال دورًا جوهريًّا في تكوين هذهِ الفكرة. ولا نريد بالخيال، هنا، سوى ما ذهب إليه(كلود برنار) حين دعا إلى ضرورة اطلاق عنان الخيال لتحقيق التجّربة، فالفكرة السابقة هي مبدأ كلّ برهنة وكل اختراع، والفكرة التجريبيّة تنشأ عن نوع من الشعور السابق للعقل الذي يحكم على أمور معينة ,أو أنّها ينبغي أن تحدث على نحو معيّن، بل يذهب برنار الى أبعد من ذلك وأوغل حين رأى أنّ في العقل معرفة عيانًا أو شعورًا بقوانين الطبيعة، لكنّنا لا نعرف شكلها، والسبيل الى معرفة ذلك هي التجربة [٧١].

ثالثًا:مغزى الإحصاء

مقاربة الانتحار في ضوء ظروف ومواقف جمعيّة بعيداً عن تجسيداتهِ الفردية ما يزال قضية جدليّة, على الرغم مِن كلّ ما قيل فيه من إمكان وصفهِ وتفسيرهِ، وهذهِ المقاربة لا تحقّق موضوعيتها التامة ما لم تُشفع بالإحصاء الذي يؤكدّ تكرارحالاتهِ وتواترها في مجتمع معيّن، وبعبارة أخرى ما تزال هذهِ المقاربة متوقفة على إمكان قياسها. فبناءً على إحصاءات أوليّة روعي فيها حصر الملاحظة بتضييق الإطار المكاني والزمانيّ, يتوصّل دوركايم الى درجة الثبات في عدد الانتحارات الحاصلة، ((فما دامت الملاحظة داخل مجتمع محدّد لا تعتمد على فترة زمنية ممتدّة امتداداً كافياً، فإنّ الرقم يشير الى عدد الانتحارات يكون ثابتاً)) [٧٢] وبالاستناد الى بيانات إحصائية تدلي بدرجة اطرّاد الانتحار في بلدان أوربا الرئيسية يتوصّل دوركايم إلى هذهِ القضيّة الكليّة: ((لكلّ مجتمع في كلّ لحظة من تاريخهِ استعداد محدّد للانتحار))[٧٣] وهذا يعني أنّ شأن الانتحار شأن أيّة ظاهرة حتمية مزمنة تعتري المجتمع باطّراد,وإذا كان ذلك فينبغي أن يخضع كأيّة ظاهرة أخرى لمقاييس رياضيّة.

وهكذا تبرز لغة الإحصاء ويصبح الانتحار ميلاً أو استعداد جمعيًّا أو تيّارًا طبيعيًّا ,تقاس الحّدة النسبيّة لهذا الاستعداد بإحصاء النسبة بين العدد الاجمالي للمنتحرين وبين عدد السكان لكلا الجنسين ومن كافة الأعمار، ويُحسب هذا الناتج بالنسبة الى مليون من السكان أو الى مئة ألف منهم [٧٤].

إن شدّة الانتحارلا ينتظم معدله الوسطي إلا حينما يظهر في المجتمع شيء ما عامًّا (غير شخصيّ) وهو شيء لا يمكن إصلاحهُ إلا في حدود ضيّقة، وهذا ما كشفت عنهُ البيانات الاحصائية، إذ يسري هذا المعدّل بنحو ملموس على جميع الشعوب التي بلغت نفس الدرجة من المدينّة تقريبًا، ثمّ إنّ ثبات معدّلات الانتحار يظلّ غير قابلٍ لتفسير إذا لم ترتبط بمجموع الصفات المميّزة لكلّ شعب على الرغم من تنوع الظروف المحيطة، فكلّ مجتمع مهيّأ لأن يُسهم بقسط محدّد من الموتى الإراديين، وهذا الاستعداد يمكن أن يكون موضوعًا لدراسة خاصة تتصل بالسوسيولوجيا [٧٥].

هذا عن ثبات المعدّلات، فماذا عن تبدّليتهِ؟. يقول دوركايم: ((أما التبدليّة فتكشف عن الطبيعة الفرديّة والمحسوسة لهذه الصفات بالذات مادامت هذهِ الصفات تتغير على غرار الفردية الاجتماعية ذاتها)) [٧٦] فالمعّول عليه في الإحصاء هو الميل الى الانتحار في ظلّ حدوث مشكلة اجتماعية، أي تتسم بالعموم، أمّا الحديث عن هذا الميل، وكونهُ حالة خاصة فريدة ، أو أنّهُ لا يمثل سوى جملة من الحالات الفردية فليس هذا من شأن دوركايم ،فالعوامل التي تهمّ دوركايم تلك التي يظهر تأثيرها على المجتمع بكاملهِ، أمّا الأخريات فِانّها عديمة الشأن أو محدودة جدّاً.

فمغزى الاحصاء هو فرز ما هو اجتماعي عن تحقيقاتهِ الفرديّة على غرار المقاربات البنيويّة التي تستهدف في العالم نظامه بمعزل عن تجسيدات هذا النظام في الواقع، فبلوغ هذا النظام يتوقّف على تهميش مكوناتهِ غير الثابتة ، وهذا بطبيعة الحال ذروة الاستلاب وغايتهُ ، وكلّ ذلك لحساب الروح الجمعيّة أو ذلك الكيان الكليّ الذي ينبغي لأجلهِ أن يفقد الإنسان هويته, بأن يندرج مع الشائع حتى في حالة موتهِ بطريقة شديدة الخصوصيّة.

إن مغزى الإحصاء لو نظرنا فيه بشيء من التعمق في النظرية السوسيولوجيّة لا يخلو من غائيّة، فمغزاهُ إضفاء المزيد من اليقين على كلّ ما هو ثابت ينبغي أن يستمرّ بمعزل عن إرادة الإنسان،وإخفاء المزيد من الحقائق التي تتعلق بالإرادة الإنسانيّة.

ولكنّ دقّة الإحصاء وحدّتهِ الرياضيّة لا يعني آنّهُ مُحْكَم،لا سيّما عندما يكون الإنسان موضوعًا للمعرفة، لأن المسألة هنا ترتبط بالنفس والإرادة والخصوصيّة والمقاومة لتأكيد الهويّة، فليس بإمكان أيّة مقاربة أن تحاصر في الإنسان كلّ هذهِ الأمور أو أن تلغيها، كما ليس بإمكان أيّة مقاربة مهما أتسّمت بالدّقّة أن تستغني عن الفهم لإدراك المعنى الكامن خلف مظاهر وجودهِ، وإلّا كانت هذهِ المقاربة موغلة في التشويه فضلاً عن النقص، نعم فليست المعرفة الرياضيّة أشدّ إحكامًا من المعارف التي تعتمد الفهم وتنظر الي الإنسان من الداخل، يقول مارتن هيدجر عن المعرفة الرياضيّة : ((كلّ ما في الأمر أنّها تتصف بالدّقة، وهذا شيء آخر غير الإحكام، فأنْ نطالب علم التأريخ [مثلاً] بالدقّة، معناهُ الإساءة إلى فكرة الإحكام التي تخصّ علوم الروح)) [٧٧] وإذن أ لم يكن الأولى بدوركايم أن يجمع بين الدّقة والإحكام ؟. ولا ندري إن كان همُّ دوركايم الأوحد تحقيق الموضوعية لعلمهِ الفتي على حساب الإنسان.

رابعا : الاقرار بالمحاكاة .

التفسير القائم على نظرية المحاكاة أحد التفسيرات التي وصفها دوركايم ب"اللااجتماعية" إلا أن خطابه يكشف عن ضعف إزاءه ، فقد سعى الى دحضه, ولكن بمزيد من التحفّظ بخلاف كل التفسيرات الفردانية ، فعلى الرَّغم ممّا في هذه التفسيرات من جوانب مشتركة تقربها من نظرية المحاكاة في عدم اشتمالها على عوامل اجتماعية كافية لتحديد شدّة الميل الى الانتحار كالتفسيرات السيكولوجية [٧٨]و التفسيرات

الكونيَّة [٧٩] التي ردَّها بسهولة لافتة – أقول على الرغم من ذلك إلا أاه لم يستطع ردّ المحاكاة بتمامها ، بل ظلّ يتراوح بين نسبيّتها وثباتها الى أن حسم الأمر اخيرًا باجتماعية المحاكاة ذاتها ، وفي موقفيه هذا أبعاد ومرامٍ في حاجة الى كشف ، ومع ذلك فإنه–إذ قال باجتماعية المحاكاة– لم يقل باجتماعية حالات الانتحار التي تعود الى عوامل المحاكاة والعدوى .

يقر دوركايم ، بدءًا ، بالأهمية ((القصوى التي تعزى إليه في تكوين الحوادث الاجتماعية ، بوجه عام ، والانتحار بوجه خاص)) [٨٠] إلّا أنّ ما يدل على كون المحاكاة ظاهرة سيكولوجية صرفة هو أنّها ((من الممكن حدوثها بين الأفراد الذين لا تجمع بينهم أية رابطة اجتماعية ، ذلك أنّ انسانًا يمكن أن يقلّد انساناً آخر دون أن يكون متضامنين أحدهما مع الآخر ، أو مع مجموعة بعينها يتبعان لها كلاهما أيضًا ، ولا يملك سريان المحاكاة وحده القدرة على أن يجعلها متضامنين)) [٨١]

ولكن بما أن مفهوم المحاكاة يتّسع ليشمل ضروبًا من مظاهر حياة الإنسان في المجتمع ، نجد أن لغة دوركايم تسير الى شيء من المهادنة حين يأتي الى تحديد معنى المحاكاة ، فبالاستناد الى آراء لوغاس وتارد وديبسن ودوتور يستخلص دوركايم ثلاث دلالات للمحاكاة ، تحيل **الدلالة الأولى** على المحاكاة المتبادلة التي يقوم بها الجميع تجاه كل واحد منهم تجاه الجميع ، وتحيل **الدلالة الثانية** على وضع الإنسان نفسه في موضع انسجام مع المجتمع الذي يشكل هو جزءًا منه ، وعند هذا يقع الانسان تحت تأثير المبدأ الاخلاقي , فعلى هذا النحو يتبع الانسان الموضات والتقاليد والاعراف ، مع ملاحظة أن دوركايم يميز هنا بين محاكاة الموضات ومحاكاة العادات والأعراف ، فمحاكات العادات والأعراف ثابتة نتخذها نماذج بخلاف الموضات التي لا تستمر بل تتّسم بالمرحلية . أما **الدلالة الثالثة** فتحيل على تلك المحاكاة التي تعني أننا نكرّر فعلاً ما لمجرد أنه حدث أمامنا ، ولا نكرره لأننا نعتقد بفائدته ، أو لأنّه يضعنا في تناغم مع نماذجنا المحتذى [٨٢]

ثم يأتي بعد ذلك الى تحليل هذه الدلالات وسط مجموعة من الأمثلة ليُخرج الدلالة الثالثة من دائرة الظواهر الاجتماعية ، نظرًا لعدم مقبوليتها ((فهي تشوّه الوقائع بدل أن تفسرها ، وتحجب المسألة بدل أن تنيرها)) [٨٣] بخلاف النوعين الأولين ، فالمحاكاة المتبادلة هو ظاهرة اجتماعية الى أبعد حدّ ، لأنها التكوين المشترك لشعور مشترك ، وقل ذلك أيضًا عن تكرار العادات والتقاليد ، فهو نتيجة لأسباب اجتماعية ، لأن تكراره نابع من طابع إلزامي يفضي الى احترام المعتقدات والممارسات الجمعية ، ومن ثم فإن تفشي الانتحار عبر المحاكاة على أحد هذين النوعين هو المعول عليه ، وليس الانتحار الحاصل وفق المحاكاة القائمة على شروط الفردية [٨٤]

وفي المحصلة يذهب دوركايم الى أنه إذا ثبت أن الانتحار يسري بالعدوى من فرد الى آخر، فإننا لا نرى أنها قادرة على تفاقمه على النحو الذي يؤثر بالمعدلات الاجتماعية للانتحارات ، فأن تكون المحاكاة

مسؤولة عن حالات انتحار فردية لا يعني أنّها تسهم في تحديد الميل المتفاوت الذي يدفع مختلف المجتمعات الى الانتحار ، فتأثيرها محدود جدًّا, فضلًا عن أنه تأثير متقطع لا يبلغ درجة التواتر لكي يشكل قيمة عددية في الانتحار الاجتماعي [٨٥]

لا يلبث دوركايم ، بعد هذه المهادنة والإقرار باجتماعيه بالمحاكاة في مستهل حديثه ، حتى نراه في خاتمه الفصل ينكر أن تكون المحاكاة المصدر الأبرز لكل الحياة الجمعية ، لأنّ مبرراتها النظرية ضعيفة جدًّا، ولكن بالاستناد الى أيّ شيء ؟ بالاستناد الى أنّ العدوى لا تخلق نتائج اجتماعية في الانتحار ، وإذا كانت المحاكاة مجردة من كلّ تأثير اجتماعي في مقاربته فلن تتمكن من أن يكون لها تأثير أكبر في الحالات الأخرى [٨٦]

وحقًّا , فإنّنا نرى أنّه ليس من الحصافة أن تردّ الحياة الجمعية بأسرها الى المحاكاة ، ولكن لا بالاستناد الى عدم ظهور تأثيرها القوي في الانتحار ،وإنّما لعدم جدوى مقاربة ظاهرة كاملةً بالاستناد الى حالة إنسانية واحدة

إنّ هذا التضارب والضعف اللذين يظهرهما دوركايم تجاه نظرية المحاكاة يدلّان صريحًا على القوة الخطابيّة لنظرية المحاكاة (على الأقل في عصر دوركايم) ، فلا نجد نظرية من النظريات أو مذهباً فكريًا من المذاهب كان يشكّل خطرًا على خطاب دوركايم مثل نظرية المحاكاة ، فعلى طول حديثه عنها لم يستطع ردّها بتمامها, بل هادنها وأحيانًا تمثلها.

إنّ موقف دوركايم من المحاكاة إنّما هو موقف يشي بالكثير من الامتثالية والتحيّز لمذهبه وانتمائه الفكري ، فعندما يقرّ باجتماعية المحاكاة يضفي على المحاكاة طابعًا امتثاليًّا كامتثالية لأعراف والتقاليد ,فبدلًا من أن يردّها قام بتبينها مضيفًا اليها دلالة مفعمة بالرجعيّة ، ولكن حين تنحرف دلالة المحاكاة على الحالات والمواقف التي تصاحب الثورات والاجتماعيات الصاخبة والموضات الفكرية والكمالية ، فإنّه لا يعزوها إلّا إلى غريزة التقليد ،أو الى التعاطف الوجداني ، وهو بذلك يجرّدها من كلّ مضمون عقليّ مسؤول ، وكأنّك به هنا يلوّح الى مظاهر التمرّد والتظاهرات التي تربك النظام القائم ، ولنكن أكثر دقة يلوح الى النزعة الاشتراكية التي تحرّض على هذه المظاهر [٨٧] أمّا عن المحاكاة الآلية, فيصفها دوركايم بالتقليد الآلي الأخرق الذي ليس له مبرراته البتة ، وهو بذلك يشير الى الفردانية في أقصى تجلياتها

خامسا : معدلات الانتحار بين تقييد الحريات واطلاقها

إنّ ممّا تراهن عليه الوضعية كون المجتمع الإنساني امتدادًا للعالم الطبيعي الذي يسير وفق قوانين وخطى محسوبة وليس بطريقة عشوائية ، إذ يخضع العالم لنواميس وحدود لا يحيد عنها ، هذه القوانين يمكن الكشف عنها في حال إخلاص الإنسان في البحث ، ودوركايم أحد أبرز القائلين بهذا الرهان العلمي

الذي يصر على أنّ الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين منظمة لا تعرف العشوائية إليها سبيلًا ، وفي إمكان الفكر الإنساني الاهتداء إليها شريطة استخدام قواعد المنهج العلمي [٨٨] وكتاب الانتحار يضرب أنموذجًا لهذا الرّهان العقلانيّ ، على أنّ هذا الإمكان ما يزال موضع شكّ عند عدد غير قليل من علماء الاجتماع الذين يجدون أن الظواهر الاجتماعية لا تأخذ شكلًا او مسارًا واحدًا كالظواهر الطبيعية ، فضلًا عن تعقد الظواهر الاجتماعية بالقياس الى الظواهر الطبيعية التي تحتوي على متغيرات قليلة بخلاف المتغيرات التي تتضمّنها الظواهر الاجتماعية [٨٩]

وبهذا,و بالاستناد الى ثنائيّة (التفكّك والتّضامن) التي شغلت حيزًا غير قليل من خطاب دوركايم بجانبيه النظري والعملي ، يقدّم دوركايم مجموعة من الفروض يعرضها للاختبار ، وبناءً على تطابق الأمثلة الانتحارية و المؤكدة ببيانات إحصائية استخلص دوركايم ثلاث حقائق كلية يطرحها ضمن ثلاثة نماذج اجتماعية للانتحار ، وهي : (الانتحار الأناني ، والانتحار الغيري ، والانتحار الفوضوي) على أنّه لا يلبث يعقب هذه النماذج بأنموذج رابع يسميه (الانتحار الجبري) لولا أن أسبابًا موضوعية تتعلق بقلة البيانات والاحصاءات التي تؤيده حالَ دون التوسع فيه ,فأضطر الى وضعها في هامش الكتاب ، وعندنا أنّ وضع هذا الأنموذج في الهامش يحمل أبعادًا ومراميَ كثيرة سنأتي عليها.

أ: الانتحار الأناني

وقد جاء هذا النوع معرفًا في بنية العنوان الفرعي للفصل :(الانتحار المدفوع إليه الفرد من نفسه) وسببه ,كما سيظهر ذلك من الوقائع, ضعف الاندماج الاجتماعي ، وسمي بالانتحار الأناني, لأن الانانية جديرة به ، فالأنانية ليست عاملًا من عوامله المساعدة ، وإنما هي السبب المولد له ، فضعف الاندماج الاجتماعي هو العامل الرئيس فيه ، ويرجع دوركايم كلّ ذلك الى الطريقة التي تؤثر بها العقائد والمجتمعات والنظم الاجتماعية على الانتحار ، ويرفد دوركايم طرحه هذا بجملة من الأمثلة التي تصادق على فرضياته ، وهذه الفرضيات هي:

١- يتغير الانتحار تغيرًا عكسيًّا مع درجة الاندماج المجتمع الديني .
٢- يتغير الانتحار تغيرًا عكسياً مع درجة اندماج المجتمع العائلي .
٣- يتغير الانتحار تغيًرا عكسيًّا مع درجة اندماج المجتمع السياسي .

وعندما يؤكد دوركايم هذه الفرضيات بالوقائع المدعومة بالإحصاءات يصل الى هذا القانون : (يتناسب الميل للانتحار عكسيًّا مع درجة تماسك الهيئة الدينية والأسرية, فكلما تماسكت هذه الهيئات انخفض معدل الانتحار,وكلما تفككت هذه الهيئات زاد معدل الانتحار) وهنا سنكتفي مع شواهده عن تماسك الهيئة الدينية ، ومن أشهرها أن معدلات الانتحار تزداد في البلدان البروتستانتية وتقل في البلدان

الكاثوليكية ،وهو يمضي في تأكيد وجهة نظره ,و يزيل عن قانونه كلّ ما يصادفه من استثناءات ,وهكذا يرى أنّ انخفاض مستوى الانتحار لدى الكاثوليك اليونان لا يمكن ردّه الى الدين بقدر ما للثقافة اليونانية من دور في ذلك ، وهذا عاد الى أنّ حضارتهم مختلفة عن حضارة كلّ الأمم الأوربية [٩٠]

فهو يريد بذلك أنّه لا يمكن حصر هذه المسألة بالدين بما أنه دين ، وإنما يتعلق الأمر بالتفسيرات الدينية ، فالبروتستانتية تضع الانتحار على غرار الكاثوليك في جملة الأعمال السيئة ، إلا أنها تختلف عن الكاثوليك في أن التفسير البروتستانتي للمسيحيّة يقرّ ب(البحث الحرّ) ويشجع على الميول الفردية ، والبحث الحرّ ما أن ينتشر حتى يزيد في إحداث الانقسامات ، فالبروتستانتية أعطت للفكر الفرديّ قسطًا أكبر ممّا فعلته الكاثوليكية [٩١]

واذا مضينا مع دوركايم الى الوقائع الاجتماعية والأسرية نجده في أغلب مواقفه يعزو الأسباب الى وهن الروابط الاجتماعية وتراخي التضامن,وهذا منبعه حسب رأيه التشكلات الأخلاقية الجديدة التي تقوم بصياغة الفرد صياغة مضطربة ، فيكون لها سلطان قوي على إيصاله لحالة من التخبّط المعنوي ، فما أن يتعرض الفرد إزاءها الى أدنى هزّة حتى وجد الانتحار خير طريق يتخذه لمواجهة بؤس الحياة [٩٢]

إنّ نظرة دوركايم الى التضامن صحيحة في مجملها ، مثلما نقول ذلك عن الفرضيات التي انطلق منها والوقائع التي استقرأها ، ولكن يبقى الخلاف في تعميم نتائجه ، لا سيّما ما يتعلق منها بالبروتستانتية وتحريضها على البحث الحرّ ، فهذا البحث الحرّ الذي يبدو أنه يخيف دوركايم لمجرد كونه باعثًا على الفردية ،أسهم في صياغة الوجود صياغة عقلانية ، فالعودة الى الذات ومراقبتها باستمرار بإرادة منهجة أدت الى تعقيل السلوك الفردي وترشيد إدارة العمل ، من كل ذلك ارتقت الرأسمالية بسبب الثقة التي اودعتها البروتستانتية في الإنسان فأصبح قادرًا على تنظيم سلوكه ذاتيًّا بعيدًا عن التقاليد ، ليكون أكثر اتّزانًا في حياته العملية وأكثر انتاجية على ما لاحظ ذلك ماكس فيبر [٩٣] وهكذا فالتشكلات الاخلاقية الجديدة قد لا تخلو من قيم باعثة على الاندماج الاجتماعي وخلق التضامن ، ولكن ليس على سنن المحافظين,على أنّ مشكلة دوركايم تكمن فيكونه لا يقنع بالتشكلات الأخلاقيّة الخارجة عن سنن المحافظين .

ب: الانتحار الغيري

هذا الانتحار يقع على الطرف الآخر من الانتحار الأناني ، وهو الانتحار الذي يدفع إليه الغير ، ويقوم على الإفراط في الاندماج الاجتماعي ((فعندما ينفصل الإنسان عن المجتمع فإنه ينتحر ، وهو ينتحر أيضًا حينما يكون مسرفًا جدًّا بالاندماج فيه))[٩٤] فهذه هي الفرضية التي ينطلق منها دوركايم ، ويؤيدها بالشواهد والوقائع ، لينتهي الى القول بأنه عندما يصل الانخراط في الهيئات المجتمعية الى حدّه الاقصى

يرتفع معدل الانتحار [٩٥] فنحن إذن إزاء نموذج من الانتحار متميز عن الانتحار السابق بسمات فارقة ، فإذا كان سبب الانتحار الأناني إفراط في الفردانية ، فإنّ سبب هذا الانتحار فردانية فطرية ناقصة جدًّا ، لأن المجتمع يخضعه بقوة لتبعيته[٩٦]

وتعدّ المجتمعات الدنيا (= الشعوب البدائية) مرتعًا لهذا النوع من الانتحار ، فهذه المجتمعات يقل فيها الانتحار الأناني ، نظرًا لانصياع الإنسان فيها الى المجتمع وانعدام الفردية لديه تمامًا [٩٧] كما يصادف أيضًا داخل الحضارات الأحدث عهدًا على غرار انتحار المسيحين الحديثي العهد بالدخول في النصرانية الذين تنازلوا عن أشخاصهم لصالح الفكرة التي كونّها الاتقياء الورعون [٩٨]

امّا في المجتمعات المعاصرة ، فبما أن الشخصية الفردية تجاوز الشخصية الجمعية ، فإن انتشاره لا يحدث على نطاق واسع إلا لدى رجال الثورة والعسكرين ، إذ يكتب دوركايم في الهامش أنّ من المرجع عزو الانتحارات المكررة لدى رجال الثورة الى الحالات غيرية ، إثر الحماسات الجماعية التي فيها تفقد فيها الشخصية الفردية أهميتها ، وبدلًا من ذلك تكون مصالح الحزب أو الوطن فوق كل شيء[٩٩]

اما كثرة الانتحار الغيري لدى الجنود فعائد الى أنّ الجيش هو المؤسسة الوحيدة من بين مؤسسات مجتمعاتنا الحديثة التي تذكرنا ببنية المجتمعات البدائية ، لأنّ الأخلاق العسكرية في بعض جوانبها أثر من آثار الأخلاق البدائية [١٠٠] ويستثنى من ذلك حالات الانتحار لدى ضباط الصف ، لامتلاكهم شعورًا حياً بذاتهم وبقيمة الحياة ، فهم أقل نزوعًا الى تدميرها على العكس من حياة الجنود وانعدام الشخصية لديهم إثر تدربهم على الاستهانة بالذات والاستعداد للتضحية بها [١٠١]

يعكس دوركايم هنا وعي المحافظ الذي ينظر بازدراء الى البدائية ونظمها ، فانسجام النسق البدائي واندماجه انبنيا وفق أطر اجتماعية متأخرة لا تقاس بالأنظمة المتقدمة التي كان للعقل والوعي الطبقي دور في تشكيلها ، أمّا عن تفسيره لانتحار المسيحين الأوائل فيضمر تكرارا وتأكيدا لموقفه من التشكلات الحديثة التي تخترق النظام القائم ، وقل ذلك أيضًا عن تشبيه المؤسسة العسكرية بالمؤسسة البدائية ، ففي هذا التشبيه تعبير عن الأثر الذي تركته الحروب على أنظمة بلدان أوربا وعلى الخصوص فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية التي عارضها المحافظون .

ج:الانتحار الفوضويّ أو الأنومي

وهو حسب دوركايم ذلك الانتحار((الذي تدفع إليه فوضى ناجمة عن فقدان النظام الشّرعيّ))[١٠٢] إنّ معدلات الانتحار ترتفع في حال الاختلال المفاجيء للتوازن الاجتماعي والبنية الاخلاقية في المجتمع,كالأزمات الاقتصادية,وكذا ترتفع معدلات الانتحار في أوقات الوفرة والانتعاش الاقتصاديّين,وهذا تابع الى أنّ حالة من انعدام المعايير قد سادت في المجتمع ,فالمجتمع ليس شيئًا يُجذب إليه بقوة متفاوته

مشاعر ونشاطات الأفراد,وإنّما هو في مقابل ذلك سلطة تنظّم هذه المشاعر والنشاطات وتضبطها,وهكذا فإنّ ثمّة صلة تربط بين الطريقة التي يمارس بها المجتمع سلطته باطّراد وبين المعدّل الاجتماعي للانتحار [١٠٣]

هذا النوع من أهم انواع الانتحار نظرًا لشدّة قربه من نسق دوركايم,فالمجتمع هو المرشد والملاذ الذي يلوذ به الفرد للتخلّص من مخاوفه وقلقه إثر الضغوط النفسية في أوقات الأزمات,ولكن عندما يفقد الفرد ثقته بالمجتمع ولا يتقبل معاييره وقيمه يعني ذلك أنّ حالة من التمزّق اعترت المجتمع,وقلّت سلطته على الأفراد ,وفي الوقت نفسه تنعكس حالة التمزق هذه على الفرد فتؤدي به الى الانتحار.

ما يريد دوركاييم إيصاله عبر حديثه عن هذا الضرب من الانتحار هو أنّ للمجتمع سلطة نافذة على الأفراد ,وهذه السلطة تضعف في حال حدوث اختلال في النظام الجمعي,وضعف السلطان الاجتماعي يعني زيادة في تيار الانتحار الذي يصيب المجتمع باطّراد في حال بروز الفردانيّة, فأيّة محاولة للخروج على سلطة المجتمع وجبريّته لا محالة يواجه بزيادة نسبة الانتحار.ثمّ يريد دوركايم بهذا الضرب أيضًا أن المتغيرات النفسية والاقتصادية تكون تابعة للمتغيرات الاجتماعية ولا ينبغي أن تؤخذ على أنّها متغيرات أصليّة,فمثلًا((إذا كانت الأزمات الصناعية أو المالية تزيد من الانتحار ,فليس لأنها تسبب الفقر و البؤس ما دامت التغيرات التي تجلب الرخاء تؤدي إلى النتيجة نفسها,بل لأنها اضطرابات في النظام الجمعي))[١٠٤]

د:الانتحار الجبريّ

يشغل هذا النوع من الانتحار هامشًا في الكتاب,فمع أنّ هذا الضرب ذو أهميّة كبيرة لا تقلّ عن الأنواع الأخرى إلّا أنّ وضعه في الهامش يحمل دلالة رمزية واضحة على محاولة إغفاله وتهميشه,والدليل على أهميته هو أنّ الانتحار الجبري يقع في مقابل الانتحار الفوضوي مثلما يقع الانتحار الأناني في مقابل الانتحار الغيريّ,ومع ذلك يقلّل دوركايم من أهميته ويقرّ بعدم فائدته وجدواه بدعوى صعوبة العثور على نماذج له.

يعرّف دوركايم الانتحار الجبريّ بأنّه انتحار ينجم عن إسرافٍ في(التقنين),أي تلك الانتحارات التي تُعزى إلى الإفراط في الطغيان الماديّ والمعنويّ الذي يمارسه نظام ما في المجتمع,ومثاله الأشخاص الذين سدت منافذ مستقبلهم دون رحمة نظرًا لسيادة نظام تعسفيّ صارم ,كالأزواج الصغار في السّن والنساء المتزوجات دون أولاد و العبيد [١٠٥].

إنّ تهميش هذا الضرب من الانتحار لمن الإشارات الواضحة على مشروع دوركايم الاستلابيّ,وعلى ذلك ينبغي أن يكون من المؤاخذات الجديرة على مشروعه السوسيولوجيّ,ذلك أنّ دوافع هذا الانتحار تعود

على النظام المهيمن ,وبما أنّ الأنظمة المتعسّفة والصارمة في حدودها تكون في أغلبها محافظة ,فينبغي أنْ يطلق على الانتحار الحاصل في ظلّ هذا النظام (الانتحار الجبريّ أو القدريّ)و المغزى من هذه التسمية هو أنّ الأنظمة المحافظة – وإنْ كانت جائرة متزمتة – ينبغي ألّا يطالها النقد وألّا تكون موضع إدانة.إنّ البحث عن حالات هذا الضرب من الانتحار أمرٌ يقلق نسق دوركايم و تخدش ولاءه و وجدانه كمفكّر داخل في زمرة المحافظين.

الاستنتاجات :

توصلت الدراسة الى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها بما يأتي :

- إنّه على الرغم من إصرار علماء الاجتماع على ابتعادهم من المضامين الإيديولوجية,. وخشيتهم من انحدار النظرية الاجتماعية الى مغبّة التبرير , وانحدارتفسيراتها الى الدفاع عن النظام القائم ,إلّا أنَّ تورّط النظرية الاجتماعية بالتبريرات المحافظة والمضامين الفكرية تؤكّده الدراسات الإبستمولوجيّة. كان دوركايم أحد المحذرين من ارتباطات علم الاجتماع بالمذهبية,ولكنّ تحذيراته لم تُشفع بأدلة إجرائيَّة,فقد كانت نظرية دوركايم و تفسيراته شديدة الصّلة بالأفق العام المسيطر في أوربا.
- ما من تفسير كان يقلق دوركايم ونسقه النظري من بين كل التفسيرات مثل التفسير النفسي ،فقد كان يحسّ بأنّ الركون الى نتاجات علم النفس سبيل الى تفشّي الفردانيّة وتأييدها.
- تتسلّل إلى نظرية دوركايم أشياء كثيرة من الفلسفة,إلى درجة يمكننا القول بوجود تجاور عقلاني بارز بين الفلسفة وعلم الاجتماع الدوركايمي،فثمة خطّ أو مسطرة معرفية تشركه مع النظام المعرفي السائد,والذي أدى الخطاب الفلسفي دورًا محوريًّا في تكريسه,فمثلًا عند حديثه عن الروح الجمعية يستدعي مطلق هيجل بصورة نميل معها الى القول بأنّ مفهوم المجتمع في فكر دوركايم يقترب من مفهوم المطلق لدى هيجل.وعند حديثه عن الشيئيّة الاجتماعية يقارب إيمانويل كانت وإصراره على "الشيء" من دون التوغّل لمحاولة إدراك الشيء في ذاته,وعندما يحاول يراعي مفهومي الشيئيّة والخارجية ودرء الأحكام القبليّة في مفهوم الانتحار يستدعي منطلقات الحسّيين.
- يتضح المغزى الإيديولوجي لاجتماعية الانتحار في تفسير دوركايم بالتواؤم مع نسقه الفكريّ, فلكي يكون علم الاجتماع علمًا تجريبيًّا قادرًا على محاصرة الظواهر,عليه أولًا أن يحدث قطيعة مع التفسيرات النفسيَّة ,وهذا ما يتَّضح أكثر حين نجد أساطين النظرية أنهم يبتعدون عن علم النفس ومناهجه ،لا لأنه علم يُعنى بالفرد ,أو أنه ينهض في أغلبيته على تقنيات الاستبطان ، وإنَّما – أيضًا – لأنه بذلك لا يخدم التوجهات الإيديولوجية التي تجعل من (الكلّ)همَّها الأوحد .

وفي هذا تجسيد – أيضا – لتوجهاته الايديولوجية المحافظة التي تدعو الى سلب الادارة الانسانية وفصلها عن عملية سير التاريخ .

- كان الاعتماد على مناهج العلوم الأخرى, لا سيّما العلوم الصرفة, يشكِّل دوغما في مسرح العلم ,الأمر الذي جعل علم الاجتماع مشدودًا – على مستوى الرؤية والمنهج – الى العلوم الأخرى بما يجعله يتطفّل على مناهجها و آليات العمل فيها،وهذا ما أدى الى أن تغيب عنه النظرة الاجتماعية الخالصة التي تفسّر ما هو اجتماعي بما هو اجتماعي,ففي الوقت الذي يدّعي فيه دوركايم إمكان تفسير المجتمعي اجتماعيًّا نجد أنّه يتّكئ في تأكيد تفسيراته بعناصر دخيلة على المنهج الاجتماعي .
- استعان دوركايم بالنماذج الرياضية والتقنيات الاحصائية ، وذلك بالنظر الى أن الرياضة و الاحصاء يؤكدان حصافة مماثلة والتشابه بين علم الاجتماع والعلوم الطبيعية,وبهذا أثبت دوركايم, خلافًا لما هو شائع وقار في المتخيَّل الاجتماعي,أنّ الانتحار لا يمكن أنْ ينجم عن قرارٍ فرديّ فحسب,فللمجتمع جبريَّة وسطوة ,وهذا ما تؤكّده التغيّرات في معدلات الانتحار لسكان معينين,على أنّ الإحصاء وإن أثبت دقة وحصافة في بحثه إلا أنّه لم يكشف عن إحكام.
- و بكلّ ما تقدّم يكون كلّ ما جاء في كتاب الانتحار لدوركايم انتصارًا لمشروعه السوسيولوجيّ الوضعيّ,فضلًا عن أنّه بكلّ ذلك يعبّر عن قناعاته و رؤاه اليقينيّة إزاء الأنظمة المحافظة.

هوامش الدراسة

١- الإيديولوجيا واليوتيوبيا:٤٦.
٢- الانتحار:١٠.
٣- الدروس الأولى في علم الاجتماع,فيلب ريتور:٢٦.
٤- علم الاجتماع بين الفهم والتفسير,جميل حمداوي:٤.
٥- م-ن:١٩.
٦- مدخل جديد الى الفلسفة,د.عبد الرحمن بدوي:٦٨.
٧- درس الإبستمولوجيا,عبد السلام بنعبد العالي وزميله:٧.
٨- حفريات في المعرفة,ميشيل فوكو: ١٧٧.
٩- م-ن:١٨٣
١٠- سوسيولوجيا العلم /قراءة في فلسفة توماس كون ,كريم موسى :١٣٣
١١- الجابري ، محمد عابد ،تكوين العقل العربي:/٣٧.
١٢- قضايا ابستمولوجية في اللسانيات ,حافظ اسماعيل علوي وزميله:٣٤.
١٣- م-ن :٤-٣٥.
١٤- علم اجتماع المعرفة:٢٥٢, كذلك: تفكيك دوركايم:٥٢
١٥- الأشكال الأولية: ٨٣-٨٤

١٦- ينظر: تاريخ علم الاجتماع، محمد علي محمد:١٨٨
١٧- الواقعية والاسمية من مشكلات الفلسفة الاسكولائيّة ,وتتعلق بحقيقة وجود الكليّات وعدمها، وتعني الكليات المعاني والتصورات المجردة، يرى المثاليون أصحاب النزعة الافلاطونية أن للكليات وجودًا واقعيًّا أسمى من الوجود الفردي، بينما يرى أصحاب النزعة الأرسطيّة أن الوجود الحق هو الجزئي أو الفردي، أمّا الكليّ فلا وجود لهُ واقعيًّا، إن هي إلّا أسماء. ينظر: فلسفة العصور الوسطى،د-عبدالرحمن بدوي(مقدمة الكتاب).
١٨- ينظر: معجم العلوم الاجتماعية:٤٠
١٩- علم اجتماع وفلسفة، إميل دوركايم:٥٠
٢٠- ينظر: روح الفلسفة الحديثة، جوازيا رويس:٢٦٨
٢١- فينومينولوجيا الروح، فردريك هيجل:٦٠٤
٢٢- الأشكال الأولية للحياة الدينية:٥٣٦
٢٣- ينظر: نصوص مختارة من التراث الوجودي، ترجمة فؤاد كامل:٩٧
٢٤- ينظر: م-ن:٩٧
٢٥- الأشكال الأولية للحياة الديني:٥٣٧
٢٦- م-ن:٥٣٧
٢٧- ينظر:من نظرية المعرفة الى الهرمنيوطيقا، د-مجدي عزالدين حسن:٥٥
وينظر أيضًا: الفهم والنصّ:١٧
٢٨- ينظر: نظرية علم الاجتماع، تيماشيف:٢٦١
٢٩- ينظر: علم الاجتماع عند ماكس فيبر:١٠٦
٣٠- قواعد المنهج:٧٠
٣١- ينظر: م-ن:٩١-٩٣
٣٢- م-ن:٩٥
٣٣- ينظر:تفكيك دوركايم:٤٥
٣٤- ينظر:تايلر،د- أحمد أبو زيد:٥١
٣٥- ينظر: النظرية الاجتماعية الحديثة،بيرسي كوهن:٧٨
٣٦- عن لجوء دوركايم الى التاريخ وحديثه عن جدوى التفسيرات التاريخية
ينظر كتابهُ: الأشكال الأولية للحياة الدينية:٢١-٢٢. وعن لجوئه الى البيولوجيا، ولكن بمزيد من التحفظ، ينظر كتابه:علم اجتماع وفلسفة:١٩-٢٠
٣٧- ينظر:قواعد المنهج:٩٥
٣٨- ينظر:علم الاجتماع(الوسيولوجيا)،د-عبدالله إبراهيم:٩٧
٣٩- قواعد المنهج:٩١
٤٠- ينظر: مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ج بنروبي:١٢٩.وينظر:كانت أو الفلسفة النقدية,د.زكريا إبراهيم:٤٨-٨٤.

٤١- في تقسيم العمل الاجتماعي:٤٣
٤٢- مصادر وتيارات الفلسفة:١٣٢
٤٣- فقد مارست هذه المفاهيم نفوذًا على كلّ الانساق والنظريات الجوهرية في الثقافة، يكفي أن نشير إلى أن فكرة(الشخصية القاعدية)التي ظهرت عند كروبر وكاردنر، إنمّا هي صورة مطوّرة لفكرة الوعي الجمعي عند دوركايم. ينظر: مفهوم القافة، دينس كوش:٤٨
٤٤- ينظر: قواعد النهج: ٢١٣-٢١٤
٤٥- ينظر: تفكيك دوركايم:٢٩٤
٤٦- ينظر: قواعد المنهج:٦٢
٤٧- ينظر: إميل دوركايم، قباري محمد إسماعيل:٣٢-٣٣
٤٨- ينظر: النظرية في علم الاجتماع، د- سمير نعيم أحمد:٩٧
٤٩- عن مفهوم القهر ينظر: المجتمّع، ماكيفر وزميلهُ:٣٠٧/١-٣٠٨
٥٠- ينظر: النظرية في علم الاجتماع:٩٥
٥١- ينظر: م-ن:٩٤-٩٥
٥٢- ينظر: تفكيك دوركايم:٢٩٣-٢٩٤
٥٣- ينظر: مقدمة في علم الاجتماع، أرمان كوفيلييه:٥-٦
٥٤- ينظر:قواعد المنهج: ٩٧-٩٨-١٠٢
٥٥- الانتحار: ١٢
٥٦- م-ن: ١٢
٥٧- م-ن: ١٢-١٣
٥٨- م-ن: ١٣
٥٩- ينظرفي هذا الشأن: بؤس البنيويّة ,ليونارد جاكسون:٨٢
٦٠- الانتحار: ٧
٦١- ينظر: م-ن: ٧
٦٢- م-ن: ٩
٦٣- م-ن: ٩
٦٤- م-ن: ١٠
٦٥- موجز تاريخ الفلسفة: ٥٣٨/٢
٦٦- ينظر: النظرية في علم الاجتماع: ٩٧
٦٧- قواعد المنهج: ٩١-٩٢
٦٨- مدخل جديد الى الفلسفة: ٧٥
٦٩- ينظر في شأن الظاهرة السوية وغير السوية :قواعد المنهج: ١٣٦
٧٠- ينظر: قواعد المنهج: ٩٧ إذ يرى دوركايم ضرورة قيام علم الاجتماع على التخلّي من فكرة سابقة، وعلى العالم أن يتحرّر بصفة مطردة من قناعاتهِ
٧١- ينظر: مدخل جديد الى الفلسفة: ٧٤
٧٢- الانتحار: ١٣
٧٣- م-ن: ١٦
٧٤- م-ن: ١٦
٧٥- م-ن: ١٧-٢٠-٢١
٧٦- م-ن: ٢٠
٧٧- ما الميتافيزيقيا، مارتن هيدجر: ١٠٢.
٧٨- ينظر:الانتحار:٢٥الى٩٥.
٧٩- :ينظر:نفسه:٩٦الى١٢٤.

٨٠- : الانتحار : ١٢٥ .
٨١- : م – ن : ١٢٥ .
٨٢- : ينظر : م – ن ١٢٧ – ١٢٨ .
٨٣- : ينظر : م – ن : ١٣٣ .
٨٤- : ينظر : م – ن : ١٣٥ – ١٣٦ .
٨٥- : ينظر : م – ن : ١٥١ – ١٥٢ -١٥٣ .د
٨٦- : ينظر : م – ن : ١٥٤ .

٨٧- : ينظر في شأن المحاكاة والعدوى في الفكر الاشتراكي : روح الجماعات ، غوستاف لوبون : ١١٧ – ١١٨ .
٨٨- : ينظر : الايدلوجيا وقضايا علم الاجتماع : ١٠٧ .
٨٩- : ينظر : م – ن : ١٠٨ .
٩٠- : ينظر : الانتحار :١٧٠ – ٢٥٣ – ٢٦٢ ، وينظر : علم الاجتماع ، د. عبدالله ابراهيم : ١٠١ .
٩١- : ينظر : م – ن ١٨١ .
٩٢- : ينظر : م – ن : ٢٦١ – ٢٦٢ .
٩٣- : ينظر : علم الاجتماع عند ماكس قير : ١٩٤ – ١٩٥ .
٩٤- : الانتحار : ٢٦٥ .
٩٥- : ينظر: علم الاجتماع ، عبدالله ابراهيم ، ١-١
٩٦- : ينظر : الانتحار :٢٧١ .
٩٧- : ينظر : م –ن : ٢٦٥ – ٢٦٦ – ٢٦٧ .
٩٨- : ينظر : م – ن : ٢٧٩ .
٩٩- : ٢٨٠ (الهامش) .
١٠٠- : ينظر : م – ن : ٢٨٩ – ٢٩٧ .
١٠١- : ينظر : م – ن : ٢٩٠.
١٠٢- الانتحار:٣٠١.
١٠٣- ينظر: نفسه:٣٠١.كذلك علم الاجتماع,د.عبد الله إبراهيم:١٠١.
١٠٤- الانتحار:٣٠٩.
١٠٥- الانتحار:الهامش ٣٥٤.

sources and references

- shapes primary for life religious, the system totemism in a Australia, Emil Durkheim, translation Randa sent, center Arabic for research and study policies, ed.1, Beirut,2019.
- Emil Durkheim Founder Science the meeting contemporary theoretically In practice, Dr.capricorn Mohammed Ismail, facility Knowledge in Alexandria1976.
- Suicide, Emile Durkheim, translated by Hassan Odeh, Syrian General Book Organization, 2011.
- Ideology and Sociological Issues, Theory, Methodology and Applied, Nabil Muhammad Tawfiq Al Samalouti, Volume 1, New Publications House for Printing, Studies and Publishing - Alexandria, n.d..
  Ideology and Organization Theory, a Critical Introduction, Saad Abdel Morsi Badr, Edition 1, University Knowledge House, Alexandria - Egypt, 2000 AD.
- Ideology and Utopia, Introduction to the Sociology of Knowledge, Carl Manheim, translated by Dr. Muhammad Raja Al-Derini, Kuwait Library Company, d-T.
- The misery of structuralism, literature and structural theory, Leonard Jackson, translated by Thaer Theeb, Dar Al-Farqad, Damascus, 2008.
- date Science the meeting Pioneers and directions Contemporary, Muhammad Ali Muhammed, Dar Knowledge Undergraduate Alexandria1993.
- Taylor (within Series genius thought), authoring Dr Ahmad Abu Zaid, House of Knowledge in Egypt, d-T.
- Social change between bourgeois sociology and socialist sociology, Muhammad Ahmad Al-Zoubi, Dar Al-Tali`ah for printing and publishing, Beirut, 1978

- dismantling Durkheim Cash what distance Brownie, Jennifer NS.Lyman, Translation Mahmood Ahmad Slave God, the center national For translation, Cairo 2013.
- Formation of the Arab Mind, Muhammad Abed Al-Jabri, I 11, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 2011.
- Excavations in Knowledge, Michel Foucault, translated by Salem Yafut, 1st floor, Arab Cultural Center, Beirut, Casablanca.
- He studied epistemology, Abd al-Salam ibn Abd al-Aali, and Salem Yafut, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1986.
- The First Lessons in Sociology, Philip Ritor, translated and presented by Dr. Mohamed Jadidi, Al-Dakhlaf Publications, Algiers, 2015.
- The Spirit of Communities, Gustave Le Bon, Translated into Arabic by Adel Zuaiter, House of Knowledge in Egypt, 1955.
- spirit Philosophy modern, passport Royce, translation Ahmad Al Ansari, Center national For translation, Cairo2009.
- Sociology of Science / Reading in the Philosophy of Thomas Kuhn, Karim Musa, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 2014.

- Sociology between understanding and interpretation, Dr. Jamil Hamdawi, a book published on the Alukah network:www.alukah.net.
- Sociology (Sociology), Abdullah Ibrahim, 4th edition, Arab Cultural Center, Casablanca, 2013.
- Science the meeting when Max Weber, Julian Freund, translation facilitation old man Earth Publications Ministry the culture And Guidance Al Watani, Damascus1976.
- Science Meeting And philosophy, Emile Durkheim, translation Dr Hussain Anis, i1, library Anglo Egyptian ,1966.
- Sociology of Knowledge, Mr. Abdel-Aty El-Sayed, University Knowledge House, Cairo, 2000 AD.
- Medieval Philosophy, Abd al-Rahman Badawi, The Egyptian Renaissance Machine, Alexandria 1969
- In the division of social work, Émile Durkheim, Hafez al-Jamali, the Lebanese Committee for the Translation of Masterpieces, 1982.
- Phenomenology Soul, Frederick Hegel, translation Survivor Al-Awnli2006.
- issues epistemology in a Linguistics, keep Ismael upper, and mohamed Malach, NS1, the house Arabia for science, Lebanon 2009NS.
- Curriculum Rules in Sociology, Emile Durkheim, translated by Mahmoud Qassem, revised by Mr. Mohamed Badawy, Egyptian Renaissance Library, Cairo, 1961 AD.
- Kant or Critical Philosophy, Dr. Zakaria Ibrahim, House of Egypt for Printing,
- What is metaphysics, Martin Heidegger, translated by Fouad Kamel and Mahmoud Naguib, 2nd edition, Dar al-Thaqafa, Cairo, 1974.
- Introduction to Sociology, Muhammad Talaat, Issa Dar Al Maaref, Beirut, Lebanon, 1975.

- The concept of culture in the social sciences, Dennis Kush, translated by Munir Al-Saedani, revised by Dr. Labib Al-Taher, i 1, the Arab Organization for Translation, 2007
- Introduction to Sociology, Abdul Latif Abdul Hamid Al Ani and Lahai Abdul Hussein, University House for Printing, Publishing, Distribution and Translation, Baghdad - Iraq 2000 AD.
- Introduction to Sociology, Armand Cuvier, translated by Dr. El-Sayed Mohamed Badawy, and Dr. Abbas Ahmed El-Sherbiny, Dar Al-Maaref - Source, D-T.
- Introduction to Sociology, Engler, Alex, translated by Dr. Mohamed El-Gohary and others, 1st edition, Dar Al-Maaref - Egypt, 1975.
- A New Introduction to Philosophy, Dr. Abd al-Rahman Badawi, Edition 1, Dar al-Maarif al-Islamiyyah, Tehran.n.d
- A Brief History of Philosophy, a group of Soviet scholars, Arabization of Tawfiq Ibrahim Salloum, Publication of the People's Jamahiriya House, Damascus, 1980.
- the theory in a Science the meeting study cash, d.Samir Naeem, Dar Knowledge in Egypt, i5, 1985.
- from theory Knowledge to Hermeneutics, Dr.Magdi Almighty Religion Hassan, Dar Nippur, Iraq,2014.
- community,NS.McIver ,And Page, translation Dr.Ali Ahmed Jesus library Renaissance Egyptian.
- dictionary Sciences social, export and review Dr. Ibrahim Madkour, prepared elite from professors Egyptians and the Arabs Specialists, the authority Egyptian the public for the book,1975.
- Selected texts from the existential heritage, translated by Fouad Kamel, the Egyptian Book Organization, 1987.
- Social theory from the classical stage to post-modernity, Dr. Shehata Siam, Volume 1, Egypt Arab House for Publishing and Distribution, Egypt 2009
- System Structure in the Subject of Sociology and Its Problems, Fouad Khalil, Volume 1, Dar Al-Farabi, Beirut - Lebanon 2008